

الباب الأول

مقدمات التشيع

لن نحاول هنا - ونحن نبحت في نشأة التشيع في الإسلام ، أن نخوض خوضاً كاملاً في تاريخ الشيعة السياسي ، وإن كانت السياسة ، أو الإمامة ، إذا تكلمنا بلغة فقه الشيعة . هي الحجر الأساسي في نشأة الشيعة وظهورها في الإسلام . ومن العجب أن يبدأ التشيع بعقيدة مؤداها : أن علي بن أبي طالب هو الإمام بعد رسول الله ﷺ بالنص الجلي أو الخفي ، وأن الإمام لا يخرج عنه وعن أولاده - وإن خرجت قبظلم أو تقيت منه ومن أولاده - عجباً أن تبدأ هكذا ثم تنتهي إلى مذاهب فلسفية وسياسية معتقدة تمام التعقيد ، مركبة من مختلف المذاهب . أو بمعنى آخر عقيدة في حب آل البيت - تتطور خلال التاريخ وتبعاً لحوادث السياسة إلى مذهب فداي . الاعتقاد أحياناً ، والغنوص أحياناً . ويتستر خلفها مجموعات من أشد أعداء محمد ﷺ ضراوة . ولولم يكن الوسائل القضاء على رسالته ، وعلى العقيدة التي حارب ابن عمه على لأجلها بكل قواه .

ومن الخطأ الكبير القول : إن هناك تشيعاً واحداً خلال التاريخ ، كان لكل عصر نوع من التشيع : ولكل طائفة شيعية نوع من التشيع . وما أشد الخلاف بين حب مجموعة من الصحابة لعلي في عهد الرسول وفي عهد الشيخين وبين حب أنصار علي الملتفين حوله في طرقات الكوفة والبصرة . وما أشد الخلاف بين هذا الحب وبين جرأة الترابيين من أصحاب حجر بن عدى وفداء التوابين من أصحاب سليمان بن صرد . ويعظم الخلاف بين عاطفة كل من سبق وبين الشيعة الحقيقية في عهد جعفر الصادق ، حين نشأ المذهب الكلامي للشيعة ، وفق المتكلمون من تلامذة جعفر بن محمد الكلام في الإمامة وخاضوا الفلسفة في جميع نواحيها . وما أشد الخلاف نالته بين كل هذا وبين عقيدة الاثنى عشرية ، بعد وفاة الإمام الثاني عشر : وليست هذه هي كل صور التشيع بل هناك الزيدية . يقتربون من أهل السنة ، وهم بعد شيعة : وإسماعيلية يتعمدون عن أهل السنة . والاثني عشرية . وهم بعد شيعة . والكيسانية - وهم أتباع محمد بن الحنفية أو شيعته . والغلاة من داعية علياثة وبيانية وخطابية ودروز ، إلخ ، وهم كلهم شيعة والتشيع الأول كان مجسماً والتشيع الأخر كان معتزلياً ، وهم جميعاً شيعة .

فالتشيع إذن ظاهرة مركبة معقدة ، وبين طوائف الشيعة قديماً وحديثاً من الاختلاف ما لا نجده بين طوائف أهل السنة قديماً وحديثاً ، وليس بين الخلف والسلف ، وهما فريقاً أهل السنة الكبيران الآن ، ما بين الإسماعيلية والاثني عشرية - وهما فريقاً الشيعة الكبيران الآن - من خلاف كبير وتنافر شديد .

ويلاحظ جولد تسيير أن من الخطأ الكبير أن نطلق لفظ الفرق على طوائف أهل السنة من مرجئة وكلامية وأشعرية وما تريدية ومشبهة أو أن نطلق لفظ الفرق على المعتزلة ، ويحاول أن يفرد هذا الاسم «فرقة أو فرقاً» على الطوائف التي اختلفت مع جمهرة المسلمين في مسألة الإجماع^(١) ، فالخوارج مثلاً فرقة لأنها لم تتفق مع المسلمين في إجماعهم على خليفة من الخلفاء ، وكذلك الشيعة ، وهي الطائفة التي تشيعت لعلي خاصة ، وأفردت الإمامة والخلافة له ولمن بعده من بنيه فخرجت عن إجماع المسلمين فالتقابل الكبير الحاسم بين طوائف المسلمين إنما كان بين الشيعة وأهل السنة والجماعة^(٢) .

فقد تولى الأولون الخلفاء الثلاثة بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، أما الآخرون فقد اعتبروهم غاصيين أخذوا الخلافة قسراً وخداعاً من الإمام الوصي الذي عينه النص الإلهي في مواضع متعددة .

الشيعة إذن هي الطائفة التي تقابل بالتضاد أهل السنة والجماعة ، واختلفت معهم في إجماعهم اختلافًا بيناً . ولكن كيف حدث هذا الاختلاف وانتهى إلى قتال مرير وأحقاد وسخائم ونتهى إلى تفرق كلمة المسلمين حتى عصورنا الحديثة .

(١) جولد تسيير : العقيدة والشريعة في الإسلام (ترجمة الدكتور محمد موسى وزميله) ص ١٦٨ .

(٢) نفس المصدر : ص ١٧٤ .

الفصل الأول

النص الإلهي والإمام

نشأ محمد ﷺ في بطن من بطون قريش ، بنى المطلب من بنى هاشم بن عبد مناف . وكان عمده ﷺ في الصدارة العظمى نسباً في هذه القبيلة العربية العجيبة الشأن . وكانت هذه القبيلة تنسب إلى إبراهيم الرسول ، بل كان يطلق على سيد قريش . وجد الرسول ﷺ « إبراهيم الثاني » (١) وجاءت الرسالة الإلهية محمداً ﷺ في فترة كف فيها الوحي الإلهي بعد أن أشرف في المرة الأخيرة على المسيح عيسى بن مريم ، وأعلن الوحي الإلهي إعلاناً لا محيص عنه ، أن محمداً ﷺ خاتم النبيين « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » سورة ٢٣ آية ٤٠ - ويعتقد المسلمون أن الدورة الكبرى ، دورة الأنبياء قد انتهت بمحمد رسول الله انتهاءً أبدياً . ولكن اختلفوا في أمر الدين والدنيا . أما في أمر الدين ، فقد رأى جمهرة المسلمين أنه إذا كان أئمة هداة يتابعون الرسالة ويعلنونها للناس ، فإن هؤلاء الهداة إنما ينبعثون ويظهرون في صورة أولياء أو أئمة مصداقاً للحديث « إن الله يبعث على رأس كل مائة عام من يجدد شباب دينه » وحاول أهل السنة والجماعة فيما بعد ، أن يجددوا أسماء هؤلاء الأئمة الذين ظهروا في رأس كل مائة عام ، فقاموا بالجهاد إما فكرياً وإما بالقتال والجهاد . أما في الدنيا ، فقد رأى الجمهور من المسلمين أن عليهم أن يبايعوا خليفة يخلف الرسول في القيام بأمر دنياهم ، وحددوا شروط هذا الخليفة . واتفقوا على أن الرسول لم ينص على واحد بعينه نصاً صريحاً وإنما اجتهدوا في الأمر بقولهم .

أما الطائفة الأخرى التي تقابل بالتضاد جمهور المسلمين ، أو بمعنى أدق أهل السنة والجماعة ، فهي طائفة الشيعة ، التي اعتقدت اعتقاداً جازماً حاسماً أن الإمام أو الخليفة ، إنما يعينه النص ، ثم يستتبع تعيين النص له أن يكون معصوماً ، وتستدعي العصمة منه ، أن ينص على من يخلفه من الأئمة ، إذ لا بد للأرض من قائم يدعو إلى الحق ويدافع عنه .

وقد انتقل النبي محمد صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، وتولى الخلافة بعده الصاحب الأول وهو أبو بكر بن قحافة المشهور بأبي بكر الصديق ، ثم تلاه عمر بن الخطاب ، ثم عثمان بن عفان ثم

(١) البيهقي : تاريخ البيهقي (طبعة النجف ١٩٥٨) ج ٢ ص ٧ .

على بن أبي طالب . وبينما يذهب أهل السنة إلى أن علياً قد قتل -تلائف الثلاث وأطاع الخلفاء الثلاثة وأحسن لهم المشورة ، يذهب الشيعة إلى أن علي بن أبي طالب ما كان مكرهاً وحين تولى آخر الأمر ، لم يبق في خلافته إلا زمناً يسيراً ثم قتل غيلة ، ثم قتل ابنه الحسين مسموماً وقتل أبو عبد الله الحسين ابنه الآخر في سهل كربلاء ، وقتل أولاده معه ، ولم يبق إلا ولدان تناسلت منهما الأسرة العلوية ، وتتابع القتل على أغلب رجالها ، بحيث يعتبر تاريخ تلك الأسرة حياً مأساة من أكبر المآسي في تاريخ الإنسانية ، ولقد صور الشيعة تلك المآسي تصويراً أخذاً ، وبكى شعراء الشيعة أهل البيت وعترته بكاء مريراً ، ورأوا فيهم صورة الإنسانية الخزينة . وبكى البكاء سمة الشيعة حتى قيل « أرق من دمة شيعية » ورأى أئمة أهل البيت أنفسهم ، أن « المحن والعذاب » كأس كتب عدم تناوله ، ونرى فاطمياً منهم فيما بعد ، وهو العزيز بالله (المتوفى عام ٢٨٦) يبكي في يوم عيد توفى فيه ابنه فيقول :

نحن بنو المصطفى ذوو محن يجرعها في الحياة كاظمنا
عجيبه في الأيام عمتنا أولنا مبتل وآخرنا
يقرح هذا الورى بعيدهم جميعاً وأعيادنا مآتمنا^(١)

إن المسلمين أجمعين - اللهم إلا السلف - من الخطابلة المتأخرين رأوا في أهل البيت جميعاً ملاذاً لهم في أديعتهم وتوسلاتهم وقد أمروا في صلواتهم بالدعاء لهم ، والصلاة عليهم . ومجد المسلمون جميعاً سنة وشيعة فاطمة الزهراء واعتبروها سيدة نساء العالمين ، ومنها بقى الدم النبوي في آفاق الأرض . وفاطمة الزهراء العقب الوحيد الباقي لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقد عاشت في أحضان الرسول ، وذاقت مرارة اليم - بعد وفاة أمها ، وتحملت مع أبيها - وهي طفلة غضة - عذاب قريب القرشيين واضطهادهم ، وكانت مثلاً من أمثلة الفداء ، ولم تن على الإطلاق . وقد هاجرت مع عمها على بن أبي طالب فارس الإسلام من مكة إلى المدينة ، يسيران ليلاً ويحْتَفِيَان نهاراً ولما رجع عودها زفت إلى ابن عمها ، وحوارى أبيها ، ثم حملت حفيداً محمد صلى الله عليه وسلم ، الحسر والحسين ، زهرتا بنى هاشم ، وسيدا شباب أهل الجنة ، كتب عليها الموت شهادة في الميلاد . وحين أتى وفد نجران إلى الرسول وسألوه عن حقيقة المسيح ، نزل القرآن « إن هو إلا عبد أعتنا عليه وجعلناه مثلاً لى إسرائيل . إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب » ثم دعا إلى المباهلة « فن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم ، فقل تعالوا ندع أبناءكم وأبناءنا ونساءكم ونساءنا وأبنائكم وأبنائنا ونساءكم ثم نبهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » ورضى الوفد بالمباهلة - فأتى الرسول صلى الله عليه وسلم أخذاً بيد الحسن والحسين تتبعه فاطمة وعلى بين يديه وألقى عليهم الرسول صلى الله عليه

وسلم بكسائه ، وقد عرفت هذه الحادثة بحدوثه . وعرف الحديث الواحد فيها بمحدث الكساء ثم جثا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبته وركع ، فانسحب الوفد النجراني - هارياً ورفض المباهلة . وسنرى بعد ذلك كيف ألمت فكرة المباهلة القرآنية حماس المباهلة عند فرق الغنوصية الشيعية المخفية .

وحين مرض الرسول صلى الله عليه وسلم - وذهبت فاطمة لتعوده ملتاعة خرجت ضاحكة لتعلن أن الرسول صلى الله عليه وسلم بشرها بأنها ستلحقه في رياض الله قريباً . وحين تولى أبو بكر خلافة المسلمين ، غضبت فاطمة وقد رأت أن لعل الحق الأكبر في الخلافة ، واجتمع جماعة من المهاجرين لأنصار مع علي بن أبي طالب في منزل فاطمة - وعلم أبو بكر وعمر بالأمر فذهبا مع جماعة من المهاجرين ، وهجموا على الدار فخرجت فاطمة فقالت « والله لتخرجن أو لأكشفن شعري ولأعجن إلى الله » وخشى الصحابة دعوتها فخرجوا .

وبعد سبعين ليلة من وفاة الرسول أحست فاطمة بالموت . فقالت لصديقها أسماء بنت عميس : ألا تترين إلى ما بلغت ، أفأحمل على سرير ظاهرا . لقد خشيت فاطمة الزهراء بنت محمد رسول الله أن تحمل على سرير يظهر جسدها المسجي للناس فقالت لها أسماء : لعمرى يا بنت رسول الله ، ولكني أصنع لك شيئاً فقالت فاطمة : فأرينيه فأرسلت إلى جريرد رطب فقطعته ، ثم جعلتها على السرير نعتاً . وهو أول ما كانت النعوش . وتبسمت الزهراء الطاهرة وما رؤيت مبتسمة إلا يومئذ . وحضرت نساء من قريش في مرضها وقلن لها : كيف أنت يا ابنة رسول الله - قالت : أجدني كارهة لدينا كن سرورة لفرأقكن ، فما حفظ لي الحق ، ولا رعيت مني الذمة ، ولا قبلت الوصية ولا عرفت الحرمة ، وبعد سبعين يوماً من وفاة الرسول ﷺ - كما قلت - أسلمت الزوج وبن يديها طفلها الصغيران الحسن والحسين ، وكان سنها ثلاثاً وعشرين سنة .

كانت حياة فاطمة الزهراء القصيرة عظلة كبرى للمسلمين جميعاً ، المهاجرة الصغيرة في ظلام الليل الدامس ، مع ابن عمها الفتي ، تسير في دروب جبال مكة متخفية ، ثم تحترق الصحراء الكبيرة في طريقها إلى يثرب ، وأعداء أبيها اللدد في إثرها وإثر ابن عمها ، ثم هجرتها الأخيرة في رحلة الموت إلى الله ورسوله - أفهم كل هذا المسلمين جميعاً بالأسى ، وقد كان أبو بكر يتذكر فاطمة ويبكى ، بل أعلن حين موته ندمه أن اقتحم منزلها بالرجال . وكانت فاطمة الزهراء تؤمن بلا شك بحق علي في الخلافة ، ولم يكن هذا منبثقاً عن أمل في مشاركة ابن عمها حكم المسلمين ، لقد كانت تعلم عن يقين أنها تاركة الدنيا سراعاً ، ولكن عن إيمانها بأحقية وأهليته للمهمة الكبرى التي تركها الرسول صلى الله عليه وسلم . وإذا كان المسلمون أجمعين اعتبروها « زهرة الوجود » و« عطر الحياة » و« الأئني الخالدة »

فإن الشيعة من بين المسلمين ، قد اعتبروها البرهان الأكيد على عقيدتهم في الحق الإلهي لعلى ، بل يؤمنون بأنها الشهادة الكبرى من رسول الله على أحقية على بن أبي طالب في خلافة الرسول ديناً ودنيا ، ولقد نحرزوا عن دعوتها بالأنوثة ، ودعواها « بفاطم » وشغلت أم الإمامين والأئمة جميعاً في أفكار الشيعة وفي عقائدهم مكاناً قدسياً وحرماً طاهراً .

ولئن احتلت فاطمة من ناحية ، وعلى من ناحية أخرى المكان الكبير عند أهل السنة والجماعة ، إلا أنهم قرروا قراراً حاسماً أن النبي صلوات الله عليه لم ينص على ولاية على أى نص ، وأما عن ولاية أبي بكر - فقد اختلف أهل السنة والجماعة هل هي بالنص الحقى أو بالنص الظاهر ، أو أنه ترك الأمر لاجتهاد المسلمين .

أما من يرون أن ولاية أبي بكر بالنص الحقى - فيذكرون الواقعة المشهورة : أن الرسول - في أثناء مرضه - أمر أن يؤم أبو بكر المسلمين في الصلاة - والصلاة هي الإمامة الصغرى . فأولى به أن يكون هو صاحب الإمامة الكبرى ، إمامة المسلمين دنيا وديناً . أما من يرون أن الرسول صلوات الله عليه نص على أبي بكر وقطع البيان على عينه حتماً ، الحديث المشهور أن امرأة أتت إلى النبي صلى الله عليه وسلم لتسأله أمراً من الأمور . فأجابها وطلب منها أن ترجع إليه متى أرادت ، فقالت : « رأيت إن جئت فلم أجده » كأنها تريد الموت . قال : « إن لم تجدني فأنى أبا بكر » والحديث الآخر : « اقتدوا بالذين من بعدى أبي بكر وعمر » . وأسند البخارى عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : بينا أنا نائم رأيتني على قلب علي عليه دلو فترعت منها ما شاء الله ، ثم أخذها ابن أبي قحافة فترع منها ذنوباً أو ذنوبين وفي نزعها ضعف ، والله يتفرغ له ضعفه ، ثم استحالت غرباً فأخذها عمر بن الخطاب ، فلم أر عبقرياً من الناس يتزعزع عمر ، حتى ضرب الناس بعطن » وذلك نص في الإمامة عند أهل السنة والجماعة ، والفتة الثالثة - وهي ترى أن رسول الله ﷺ ترك الأمر لاجتهاد المسلمين ، ورأى المسلمون أن أبا بكر هو ثاني اثنين إذ هما في الغار ، وأول من آمن من الرجال ، ثم رجل الصحبة الطويلة . وأخيراً - عهد إليه الرسول بالصلاة - الإمامة الصغرى ، ففاسوا الأمر ، بأن تكون له الإمامة الكبرى - أى الخلافة .

أما الشيعة فترى أن النبي صلى الله عليه وسلم قد نص على إمامة على للمسلمين من بعده في مكة منذ بدء الإسلام ، فحين نزل الوحي عليه « وأندر عشرتك الأقربين » جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بني عبد المطلب في دار أبي طالب - وهم أربعون رجلاً ، وبلغهم رسالته - ثم سأهم : « من الذى يبايعنى على ماله » فبايعته جماعة من المسلمين ، وسخر منه من لم يؤمنوا به ، ثم سأهم : « من الذى يبايعنى على روحه وهو معينى وولى هذا الأمر من بعدى . فلم يبايعه أحد . وقام على ومد يده إليه فبايعه

على ماله وروحه - وصاحت قريش معيرة أبا طالب «إنه أمر عليك ابنك» .
 أما العلامة الحلبي صاحب منهاج الكرامة وعلم الشيعة الكبير، فقد أوردها على الشكل الآتي : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا بني عبد المطلب في منزل عمه أبي طالب وقال لهم : « يا بني عب المطلب إن الله بعثنى إلى الخلق كافة وبعثنى إليكم خاصة فقال : « وأنذر عشيرتک الأقرین » وأنا أدعوکم إلى کلمتين خفيتين على اللسان ، ثقيلتين في الميزان تملكون بها العرب والعجم ، وتتفاد لكم بها الأمم ، وتدخلون بها الجنة وتتجون من النار شهادة أن لا إله إلا الله وأننى رسول الله ، فمن يجيبني إلى هذا الأمر ويؤازرنى على القيام به يكن أخى ووزيرى ووصى ووارثى وخليفتى من بعدى ، فلم يجبه أحد منهم . فقال أمير المؤمنين (أوى على) أنا يارَسُولَ الله أؤازرك على هذا الأمر فقال : اجلس ، ثم أعاد القول على القوم ثانياً فصمتوا فقال على : فممت فقلت مثل مقالتي الأولى فقال : اجلس . ثم أعاد القول ثالثة ، فلم ينطق أحد منهم بحرف . فممت فقلت : أنا أؤازرك على هذا الأمر . فقال : اجلس فأنت أخى ووزيرى ووصى ووارثى وخليفتى من بعدى . فنهض القوم وهم يقولون لأبى طالب : ليهنك اليوم أن دخلت في دين أخيك فقد جعل ابنك وزيراً عليك (١) .

رأى الشيعة في هذا الحديث الذى ورد بصيغ مختلفة سنداً كبيراً لفكرتهم في النص الحلبي على إمامة على بن أبى طالب وخلافته بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد اختلف أهل السنة والجماعة في صحة هذا الحديث ، فبينما ذهب إلى صحته البعض جرحه البعض الآخر ، ولكن أهل السنة والجماعة ، لم يروا فيه على الإطلاق مساماً بخلافة أبى بكر .

ثم هناك الحديث الهام حديث العدير والذى اتخذته الشيعة سنداً لأحقية على الكاملة في خلافة المسلمين بعد رسول الله . فقد خرج النبی صلوات الله وسلامه عليه من مكة بعد حجة الوداع ، وفي الطريق نزل عليه الوحي « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل ، فما بلغت رسالته » . آية ٦٧ سورة ٥ ، وكان النبي عند غدِير خم ، فأمر بالدرجات وجمع الناس في يوم قانظ شديد القيظ ودعا علياً إلى يمينه وخطب فقال « لقد دعيت إلى ربي وإني مفادركم من هذه الدنيا وإني تارك فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، ثم أخذ بيد على ورفعها وقال « يا أيها الناس أأست أولى منكم بأنفسكم . قالوا : بلى ! قال : من كنت مولاه فعلى مولاه . اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله وأدر الحق معه حيثما دار . فقال عمر بن الخطاب : أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة . ثم عماد الرسول إلى خيمته ونصب لعل أخرى بجانبها ، وأمر المسلمين

(١) ابن تيمية : منهاج السنة ج ٤ ص ٨ .

أن يبايعوه بالإمامة ويسلموا له بإمرة المؤمنين جميعاً رجالاً ونساء (١).

هذا هو حديث غدیر خم الذي اعتقده الشيعة سنداً صريحاً لهم في القول بإمامة علي وقد اعترف أهل السنة جزئياً بصحة هذا الحديث . وأولوه بأن المقصود من الولاية هنا الولاية الروحية . بل إننا نرى الحسن البصري - إمام التابعين يعلن أن علياً رباني هذه الأمة ، أما السلف من الحنابلة المتقدمين فقد أولوا الموالاتة بعدم الكراهية ، وأنكر السلف المتأخرون الحديث إنكاراً تاماً . ومن العجب أن السلف الذين يكرهون التأويل وينكرونه : يؤولون هنا .

ثم أورد الشيعة أحاديث أخرى مثل « أنت مني بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لاني بعدى . . . الخ .

وذكروا نصوصاً أخرى من القرآن ، وفسروها تفسيراً مجازياً إلى حد كبير ، وكلها تنصب على النص على إمامة علي بن أبي طالب . وأوردوا أيضاً جملة من حوادثه تثبت إمارته ، ومنها أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يؤمر عليه في الغزوات أميراً ، ومنها أنه تركه في كثير من المواضع أميراً ، وطلب من المسلمين دعوته بإمامة المؤمنين ، ومنها أيضاً أنه بعثه إلى مكة ليقراً سورة براءة بدلا من أبي بكر . وفي إيجاز آمن الشيعة إيماناً عميقاً بإمامة علي ، ولعنوا من على منابرهم إلى يومنا هذا لغاصبين الثلاثة . وهنا نقطة البدء في مذاهبهم - فلسفية كانت أو غير فلسفية ، والتي عرفت في العالم الإسلامي باسم الشيعة وما اتصل بها من مذاهب . وتشمل الشيعة في عصورنا الحاضرة فرقا ثلاثة هي : الاثني عشرية . والإسماعيلية ، والزيدية .

أما الاثني عشرية أو الجعفرية نسبة إلى الإمام جعفر الصادق فهي التي تقول - كما سترى بعد - بإمامة علي ثم الحسن ثم الحسين ثم علي بن الحسين (زين العابدين ثم محمد بن علي بن الحسين) محمد الباقر ثم جعفر بن محمد الصادق ثم موسى بن جعفر ثم علي الرضا ثم محمد بن علي الجواد ثم علي الهادي ثم الحسن العسكري ثم الإمام محمد المنتظر . ويعيش الشيعة الاثني عشرية الآن في العراق ، ويتشرون حول المشاهد الشيعية المقدسة في بغداد والنجف وكربلاء ، ثم في إيران ثم منهم جاليات كبيرة العدد في القوقاز ، ثم العاملون في جبل بني عامل في لبنان وفي سوريا أيضاً عدد قليل من الشيعة الاثني عشرية ، وبعض سكان الكويت والأحساء والبحرين ، ثم عدد كبير في الهند وباكستان ، وليس في مصر ولا شمال أفريقيا شيعة على الإطلاق . وعدد الشيعة الاثني عشرية في العالم الآن ثمانون مليوناً . أما الإسماعيلية ، وهم الذين قالوا بإمامة سبعة من الأئمة . والإمام السابع عندهم هو إسماعيل بن جعفر . وينقسمون الآن قسمين - طائفة الإسماعيلية يتزعمها سلطان بوهران ، ويتشرون في الهند وفي

(١) نفس المصدر السابق ج ٤ ص ٨١ والمجلسي : حياة القلوب ص ٣٣٩ .

اليمن . وطائفة الإسماعيلية النزارية وبتزعمها كمرخان وهم منتشرة في الهند وباكستان وشرق أفريقيا وجالية قليلة العدد في سوريا وتمتاز تلك الطائفة عن الطائفة الأولى بأنها أكثر فلسفة وعمقاً في البحث النظرى . وكان دعايتها يدرسون تلك الفلسفة دراسة وافية وبخاصة الفلسفة اليونانية ثم الفلسفة الغنوصية . ويقال إن ابن سينا نشأ إسماعيلياً ، وإخوان الصفا إسماعيليون ، ويقدر عدد الشيعة الإسماعيلية من الفريقين - بسبعة عشر مليوناً . أما الزيدية - وهم أتباع مروان بن محمد - فينتشرون في اليمن . وأغلب القبائل اليمنية الجبلية زيدية . ومن الصعوبة بمكان تحديد عددهم .

أما الغلاة : فمنهم الدرروز في لبنان وسوريا وشمال فلسطين ، ومنهم العلوية والشبك والصارولية وطوائف أخرى صغيرة - عربية وكردية ، في شمال العراق وإيرانية في الشمال الغربي لإيران . فما زال للشيعة إذن كيانهم العددي وقوتهم المادية والمعنوية . فكيف نشأ المذهب إذن ، هذا ما سنحاول أن نلقى عليه الضوء في الفصل المقبل .

الفصل الثماني

نشأة الشيعة

من نشأت الشيعة وظهرت في التاريخ ، ومتى ظهر مصطلح « الشيعة » أو التشيع كمصطلح يدل على الاعتقاد المطلق الكامل بأن علياً هو صاحب الحق الأول في الخلافة ، وأن الخلفاء الثلاثة الذين جاءوا قبله غاصبون لإمامته الروحية وخلافته منذ اليوم الأول الذي مات فيه النبي بغض النظر عن كونه تولى الخلافة فعلاً أو لم يتولها ، وجعل الإيمان بالإمام أو بالوصي جزءاً من الإيمان الديني وتماماً للشهادتين ، ثم الاعتقاد المطلق بأن علياً هو مستودع العلم للذي وإليه تعود الأسرار الإلهية الكاملة وأنه خاتم الأوصياء جميعاً .

يحاول بعض علماء الشيعة - ما وسعهم المحاولة بل الحيلة أحياناً - أن يشيروا أن الشيعة تكونت مع مطلع الرسالة وترعرعت في أحضانها ، ونودي بها منذ نادى الرسول بكلمة التوحيد وحين صاح الوحي في الرسول « وأنذر عشيرتك الأقرين » وأنذرهم ، فما استجاب له في قوة وفداء سوى علي أولاً ، والعترة الطيبة المؤمنة من آله ، وبمجموعة من رجال قريش ثانياً ، والتف حول علي منهم « شيعة علي الحكماء العلماء الذليل الشفاه الأخيار الذين يعرفون بالرهابة من أثر العبادة » هؤلاء هم عمار بن ياسر وحذيفة بن يمان وأبوذر الغفاري والمقداد بن الأسود وسلمان في المدينة فيما بعد . ويحاول علماء الشيعة أن يشيروا أن لكل من هؤلاء الصحابة وجهة تمثل ناحية من النواحي الروحية في الإسلام .

والخطأ الأكبر في هذه المحاولة أنه لم يكن بين يدي الرسول شيعة وسنة وقد أعلن القرآن « أن الدين عند الله الإسلام » لا التشيع ولا التمسك ، وأتى الإسلام لكي يرفع الحجز بين الناس ، فلا هاشمي ولا قرشي ولا تبعي ولا غيره ، ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى ومن الصحابة الأوائل بعد علي وأبي بكر وعثمان بن عفان من بنى عبد شمس ، فهل كان عثمان يكره علياً أو هل كان أبوذر وعمار بن ياسر يكرهان عثمان . ونحن لا ننسى أبداً أن أبا بكر هو الذي عتق عمار بن ياسر وأنه استخدمه بعد ذلك أميراً . لم يكن هناك شيعة لا روحية ولا سياسة بين يدي النبوة ، ولم تظهر كلمة الشيعة كمصطلح على الإطلاق إبان ذلك الوقت .

وإذا انتقلنا إلى ولاية أبي بكر ، فلا نرى على الإطلاق الشيعة تلتف حول علي بالمعنى المفهوم الآن

فرصة نادرة لإلقاء بذور الفتنة بين المسلمين . ومن المرجح أيضاً أنه غضب لعشيرته القديمة - بنى عبد مناف ، وأن يلب الحق منها . ولكن علياً كان أحكم من أن يدع يد أبي سفيان تتلاعب بصالح الإسلام .

ويقول اليعقوبى « واجتمع جماعة إلى علي بن أبي طالب عليه السلام يدعونه إلى البيعة له ، فقال لهم : اغدوا على غدا محلقين الرؤوس ، فلم يغد عليه إلا ثلاثة نفره (١) ونحن نعلم أن اليعقوبى وهو من أقدم مؤرخي الشيعة (توفى سنة ٢٨٢هـ = ٨٩٥م) ، لم يذكر كلمة الشيعة على الإطلاق حتى هذه المرحلة من تاريخ الإسلام . وكذلك فعل المسعودى وهو مؤرخ شيعى قديم .

غضب لعلى - كما رأينا - بنو هاشم ، وبنو أمية ، غضبوا أن تولاهما رجل من تيم ، كما غضب قلة من الناس أحيوا علياً ، ثم ما لبث الجميع أن ساروا في ركاب الخليفة ، فعملوا له في كل نواحي الحياة ، وذلك حين سار الخليفة على هدى رسول الله وسنه ، وحينما تولى الخلافة صاحب الثاني عمر ابن الخطاب ، رجل من عدى بن كعب ، لانسمع همساً ولا علناً . ولم تكن هناك شيعة أوتشيع ، وعمل الجميع لعمر وكان علي بن أبي طالب نفسه وزيره وقاضيه ولم نر أيضاً لكلمة الشيعة كمصطلح ذكراً .

وللمرة الثالثة بايع المسلمون عثمان بن عفان المشهور بذي النورين ومن بنى عبد شمس . ورضى عنه المسلمون جميعاً ، وكان رجلاً حياً خجولاً ، عاش في نعمة سابعة قبل النبوة ، ثم آمن برسول الله في مكة ، وعادى أهل بيته جميعاً من بنى أمية ، ثم هاجر فبمن هاجر ، ولم يكن يرق مقام أبى بكر أو عمر في حسن السياسة وحزم الأمور ، ولم يكن يرق مقام على بن أبي طالب في علمه أو شجاعته ، ولكن المسلمون أجمعوا عليه وبايع على أيضاً عثمان ولكن عثمان ضعف أمام أهله ، واجتهد ، وأصاب في كثير وأخطأ في كثير .

ولقد أغضب عثمان كبار الصحابة - كحذيفة بن اليمان وعبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر . ولكن خلافه الأكبر مع أبى ذر الغفارى . وقد بايع أبو ذر عثمان أول الأمر ، ولكن حين كره من عثمان بعض أفعاله ، أخذ أبو ذر يقعد في مجلس النبى صلى الله عليه وسلم ويجتمع إليه الناس ، ويهاجم عثمان . ونقل إلينا اليعقوبى بعض أقواله التى كان يرددتها على باب مسجد الرسول « أيها الناس من عرفنى ، فقد عرفنى ، ومن لم يعرفنى ، فأنا أبو ذر الغفارى » إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين . ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم » محمد الصفوة من نوح ، فالأول من إبراهيم ، والسلالة من إسماعيل والعترة الهاذية من محمد أنه شرف شريفهم ، واستحقوا الفضل في قوم هم فينا

كالصماء المرفوعة ، وكالكعبة المستورة أو كالقبة المنصوبة أو كالمشمس الضاحية أو كالقمر الساري أو كالنجوم الهادية أو كالشجرة الزيتونية أضواء زينها وبورك زبدها ، ومحمد وارث علم آدم وما فضلت به النبيون ، وعلى بن أبي طالب وصي محمد ووارث علمه : أيتها الأمة المتحيرة بعد نبيها أما لو قدمتم من قدم الله ، وأخرتم من أخر الله ، وأقرتم الولاية والوراثة في أهل بيت نبيكم لأكلتم من فوق رؤوسكم ومن تحت أقدامكم ، ولما عال ولي الله ولا طاش سهم من فرائض الله ، ولا اختلف اثنان في حكم الله ، إلا وجدتم علم ذلك عندكم من كتاب الله وسنة نبيه ، فأما إذا فعلتم ما فعلتم ، فذوقوا وبال أمركم وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .

وإذا كان هذا النص منسوباً حقاً إلى أبي ذر الغفاري - وإن كنت أشك في هذا - فهو أول نص صريح يذكره صحابي في حق علي المطلق في الخلافة . ولكن من العجب أن اليعقوبي نفسه يذكر « وبلغ عثمان أن أبا ذر يقع فيه ويذكر ما غير وبدل من سنن رسول الله ﷺ وسنن أبي بكر وعمر ، فسيره إلى الشام إلى معاوية (١) » وهذا أيضاً نص واضح يثبت أن أبا ذر كان يتولى الشيخين أبا بكر وعمر . وأنه كان يأخذ بسننها ، ويعيب على عثمان أنه غير وبدل فيها .

وقتل عثمان ولم يقتله أنصار علي ، بل إن اليعقوبي يذكر « وكان أكثر من يؤلب عليه طلحة والزبير وعائشة ، ويجمع أيضاً أهل السنة والجماعة ، أن علياً حاول أيضاً الدفاع عن عثمان ، وأرسل الحسن والحسين ليذودا عنه بأنفسهما .

وتولى علي بن أبي طالب الخلافة ، وبايعه أقوام وتخلف عنه أقوام ، ووقف مالك الأشتر يقول « أيها الناس هذا وصي الأوصياء ووارث علم الأنبياء » (٢) ويذهب ابن النديم (المتوفى عام ٣٨٣ هـ = ٩٩٣ م) إلى أنه لما خالف طلحة والزبير علياً وأبياً إلا الطلب بدم عثمان ، وقصدهما على عليه السلام تسمى أتباعه حينئذ بالشيعية ، وكان هو يقول شيعي . وأنه ساهم أيضاً بالأصفياء والأولياء ، وشرطه الخميس ، والأصحاب . ولكني أرى في كلام ابن النديم وهو شيعي بعض الغلو (٣) . . . إنه حين اختلف معاوية مع علي وأبي المبيعة . وقامت الحرب ، لم يظهر مصطلح الشيعة حتى ذلك الوقت دلالة على اتباع علي بالذات ، ذلك أن معاوية يستخدم أيضاً في هذا الوقت كلمة شيعة منسوبة إليه ، فيقول لبسر بن أبي أرطاة حين وجهه إلى اليمن « أمعن حتى تأتي صنعاء فإن لنا بها شيعة » (٤) ويذكر المسعودي (المتوفى سنة ٣٤٦ هـ = ٩٥٧) أيضاً « سفيان بن عوف » وكان من شيعة معاوية (٥) وحين

(١) اليعقوبي : تاريخ . . . ج ٤ ص ١٤٧-١٤٨ . (٤) المصدر السابق ج ٤ ص ١٧٣ .

(٢) اليعقوبي : تاريخ ج ٤ ص ١٥٥ . (٥) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ١٩ .

(٣) ابن النديم : الفهرست : ص ٢٦٣ .

مات على ونزول معاوية ، نرى كلمة الشيعة تظهر ، وذلك حين توفي الحسن ، وبلغ الشيعة ذلك واجتمعوا في دار سليمان بن صرد وكتبوا إلى الحسين بن علي يعزونه على مصابه بالحن ، ولكن الخطاب نفسه بذكر شيعته وشيعة أبيه ، ولا يذكر الشيعة . وحين قتل معاوية حاجر بن عدى وأصحابه قال ساخرًا للحسين بن علي : « يا أبا عبد الله - علمت أنا قتلنا شيعة أبيك فحفظناهم وكفناهم وصلينا عليهم ودفناهم » فقال الحسين : حججتك ورب الكعبة لكننا والله إن قتلنا شيعتك ، ما كفناهم (١) ولا حفظناهم ، ولا صلينا عليهم ولا دفناهم (٢) « ونستخلص من هذا أنه حتى هذا الوقت لم تظهر كلمة الشيعة كمصطلح عرفناه ، فيما بعد ، بسم فرقة معينة بنظام معين .

كان المسلمون في ذلك الوقت مسلمين فقط ، لاسنة ولا شيعة ، وكان الاختلاف بينهم حول أحقية الأشخاص . فلم تظهر فكرة « الوصاية والإمامة » فكرياً أو أساسياً فلم تتكون النظريات السياسية اللهم إلا في فرقة الخوارج - وهي الفرقة الوحيدة التي خالفت إجماع المسلمين في فكرتهم عن الخلافة . وحين مات معاوية وأراد الحسين بن علي الخروج إلى الكوفة ، لم يستخدم كلمة الشيعة ولا نرى ابن عباس يستخدم كلمة الشيعة أيضاً . إن ابن عباس - حين ينهى الحسين عن الخروج إلى الكوفة يقول له « اشخص إلى اليمن ، فإنها في عزلة ولك فيها أنصار وإخوان ، فأقم بها وبث دعواتك . » (٣) ، وذهب الحسين إلى الكوفة ، وقتله أهل الكوفة أنفسهم . ومن المهم أن نلاحظ أيضاً أن فكرة الإمامة أو الوصاية نفسها لم تظهر عنواناً على طائفة معينة في هذا العصر أيضاً . ولقد بكى المسلمون جميعاً الحسين بن فاطمة وابن علي ، بكاه المسلمون إبان ذلك الوقت اللهم إلا أهل الشام ، وبيكة المسلمون منهم وشيعهم حتى الآن ، ويلعنون قاتله ، ويرون في موته صفحة الشهادة العظمى .

وتكونت الشيعة حقاً بعد مقتل الحسين عليه السلام ، فرقة دينية تتدبر الأمر ، يقول المسعودي « وفي سنة خمس وستين تحركت الشيعة بالكوفة وتلاقوا بالتلاوم والتنادم حين قتل الحسن فلم يعيشوه ، ورأوا أنهم قد أخطأوا كثيراً بدعاء الحسين إياهم ولم يجيبوه ، ولقته إلى جانبهم فلم ينصروه ؛ ورأوا أنهم لا يغسل عنهم ذلك الجرم إلا قتل من قتله أو القتل فيه ، ففرعوا إلى خمسة نفر منهم سليمان بن صرد الخزاعي . . . إلخ (٤) . ووصلوا إلى موضع بالعراق يقال له عين الوردة ، يطالبون بدم الحسين بن علي ، ويعملون بما أمر الله به « فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم . فتاب

(١) البيهقي : تاريخ ج ٤ ص ٢٠٦ .

(٢) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٨٦ .

(٣) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ١٠ .

عليكم ، إنه هو التواب الرحيم » وقتلوا جميعاً فيما تجمع المصادر ، غير أن الكلمة التي غلبت عليهم هي « التوابون » .

وظهرت كلمة الشيعة الحسينية على يد المختار بن أبي عبيد الثقفي ، وهي الشيعة التي تنتسب إلى محمد بن علي بن أبي طالب المشهور بابن الحنفية . وقد اجتمعت عليه الشيعة في الكوفة ، وقتل قتلة الحسين جميعاً حتى قتل .

وفي الكوفة بعد مقتل المختار بن أبي عبيد: أخذت الشيعة تتكون كفرقة دينية كلامية ، تضع أصول التشيع ، ولكن لم تصل الشيعة إلى وضع مذهبها النهائي إلا في عهد إمامة جعفر الصادق . من هذا يتضح لنا أن اسم الشيعة كمصطلح ظهر بعد استشهاد الحسين ، وأن الكلمة كانت تطلق في أول الأمر على أية مجموعة تلتف حول صحابي من الصحابة ، وأبو خلف القمي يذكر أن أول الفرق الشيعية المسمون شيعة على في زمان النبي صلى الله عليه وسلم وبعده ، المعروفون بانقطاعهم إليه والقول بإمامته ، المقداد وسلمان وأبوذر وعمار ، « وهم أول من سموا باسم التشيع من هذه الأمة » ولكنه يتناسى أن معاوية - عدو على - أطلق أيضاً على أنصاره كلمة الشيعة . وقد أرادت الشيعة أن تمجد اسمها ، وذهبوا إلى أنه قديم ، ذكره القرآن ، شيعة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى والأنبياء (١) . وهذا تمجيد للفظ فقط ، وهيام فيه . وستفعل الإسماعيلية هذا أيضاً ، حين تحاول أن تثبت أن مصطلح الإسماعيلية قديم أيضاً ، أقدم من الإسلام بكثير .

(١) أبو خلف القمي : الفرق . ص ١٥ .

الفصل الثالث

قداسة علي عند الشيعة الأوائل

السبئية

أضنى الشيعة جميعاً على علي بن أبي طالب قداسة خاصة تأرجحت بين كونه وصياً وولياً وإماماً ومهدياً ونبيّاً وإلهاً . وسنحاول أن نعرض في هذا الفصل متبعين المنهج التاريخي ، لظهور العقائد المختلفة الشيعة في علي بن أبي طالب . ولعل من المهم أن نشير هنا إلى الحديث النبوي الذي يقول فيه الرسول صلى الله عليه وسلم لعلي « يهلك فيك اثنان محب غال ومبغض قال » :

وأول صورة نجدها للغلو في علي هي صورة السبئية . ونحن نحمل تماماً تلك الآثار الكثيرة التي وضعها الشيعة - معتدلة وغلاة - على لسان الصحابة من أنصار علي والتي تعلق به إلى مراتب القداسة العظمى ، والتأليه . ومن المؤكد أن تلك الآثار موضوعة ، وهي تساوى تماماً في تفاهتها الروايات المختلفة عن قداسة معاوية نفسه أو حتى إخلاصه للإسلام كدين ، فقد دعا النواصب معاوية « خال المؤمنين » وذلك لأن أخته أم حبيبة بنت أبي سفيان كانت زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم . ونحن نضرب صفحاً عن تلك الموضوعات كلها : لتفحص السبئية ونعرض لآرائها .

نسبت السبئية إلى عبد الله بن سبأ . وتجمع المصادر السنية والشيعة أن عبد الله بن سبأ كان يهودياً يمينياً فأظهر الإسلام ، ويرى الطبري (المتوفى سنة ٣١٠ هـ = ٩٢٢ م .) أنه أسلم في السنة السابعة من خلافة عثمان بن عفان (١) . وأخذ ينتقل بين الأمصار - من صنعاء إلى الحجاز ثم البصرة ثم الكوفة ، ثم استقر في مصر . ويقول ابن كثير « إن سبب تألب الأحزاب على عثمان أن رجلاً يقال له عبد الله بن سبأ كان يهودياً فأظهر الإسلام وصار إلى مصر فأوحى إلى طائفة من الناس كلاماً اخترعه من عند نفسه ، مضمونه أنه يقول للرجل أليس قد ثبت أن عيسى بن مريم سيعود إلى هذه الدنيا ؟ فيقول الرجل : بلى ! فيقول له : فرسول الله ﷺ أفضل منه ، فما تنكر أن يعود إلى هذه الدنيا وهو أشرف من عيسى بن مريم عليه السلام . ثم يقول : وقد كان أوصى إلى علي بن أبي طالب . فحمد خاتم

(١) الطبري : تاريخ ... ج ١ ص ٢٨٥٩ .

الأنبياء وعلى خاتم الأوصياء . ثم يقول : فهو الأحق بالإمرة من عثمان ، وعثمان معتد في ولايته ما ليس له ، فأنكروا عليه وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر « فهنا يظهر عبد الله بن سبأ في مصر ينادى بمهدية محمد ﷺ وبالوصاية (وصاية الرسول ﷺ لعل) وينادى بعزل عثمان لأنه إمام ظالم ، أى ينادى بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أى أنه ينادى بمبدأين يهوديين ويقاعدة إسلامية .

وعبد الله بن سبأ يدعى أيضاً بابن السوداء وهنا يظهر ابن السوداء رومياً . فيقول ابن كثير « خرج أهل مصر على عثمان في أربع وفاق على أربعة أمراء . . . ومعهم ابن السوداء وكان أصله رومياً ، فأظهر الإسلام^(١) » ويرى البغدادي (المتوفى سنة ٤٢٩ هـ = ١٠٣٧ م) أن ابن السوداء كان رومياً من أهل البصرة وكان يعين السبأية على قولها (٢) ، ثم يذكر أنه أظهر الإسلام « وأراد أن يكون له في الكوفة سوق ورياسة ، فذكر لهم أنه وجد في التوراة أن لكل نبي وصياً وأن علياً رضي الله عنه وصى محمد ﷺ وأنه خير الأوصياء ، كما أن محمداً خير الأنبياء . فلما سمع ذلك منه شيعة على قالوا لعل ؛ إنه من محبيك فرفع على قدره وأجلسه تحت منبره^(٣) » . ونرى هنا صورة شخصية أخرى كوفية أو بصرية ، بينما من الثابت أن عبد الله بن السوداء وعبد الله بن سبأ هما شخصية واحدة . ويحاول الطبري أن يجعل من عبد الله بن سبأ حقيقة تاريخية ، وأنه هو الذي أثار في أبي ذر ، وأنه قابله في الشام وقال له « يا أبا ذر - ألا تعجب إلى معاوية يقول - المال مال الله . ألا إن كل شيء لله ، كأنه يريد أن يحتجته دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين^(٤) » وهنا تصوير لابن سبأ بأنه هو الذي ألهم فكرة « الكنوز » لأبي ذر . ثم يذكر الطبري أن ابن سبأ استطاع أن يؤثر في محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة ، كما أن عمار بن ياسر قد وقع أيضاً في حباله وأثار الجميع على عثمان ، ويحاول البغدادي أيضاً أن يضع عبد الله بن سبأ في إطار تاريخي محدد فيقول : « وقد روى عن عامر بن شراحيل الشعبي أن ابن سبأ قيل له إن علياً قد قتل . فقال : « إن جثمتونا بدماعه في صرة لم نصدق بموته ولا يموت حتى ينزل من السماء ويملك الأرض بخذافيرها » وهذه الطائفة تزعم أن المهدي المنتظر إنما هو على دون غيره^(٥) » وهنا محاولة لربطه برواية عن أحد كبار التابعين . ويذكر أيضاً إمام المذهب الأشعري ومؤرخ العقائد الإسلامية السبأية أصحاب عبد الله بن سبأ ، وأنهم يزعمون أن علياً لم يمت ، وأنه يرجع إلى الدنيا قبل يوم القيامة فيملاً الأرض عدلاً ، كما ملئت جوراً ، بل إن السبأية تقول إنه قال لعل عليه السلام . أنت أنت ، وأن السبأية تقول بالرجعة وأن الأبوات يرجعون إلى الدنيا^(٦) .

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٧ ص ١٦٨ . (٤) الطبري ، تاريخ . . ج ١ ص ٢٨٥٩ .

(٢) نفس المصدر السابق ج ص ١٧٣ . (٥) البغدادي : الفرق بين الفرق ص ١٤٣ .

(٣) البغدادي : الفرق بين الفرق ص ١٤٤ . (٦) الأشعري : مقالات الإسلاميين ج ١ ص ١٥ .

وسرى فيما بعد أن نداء « أنت أنت » يتقلب نداء غنوصيا ، ويعتبر نداء تلبية ، حين يرى الغنوصيون من الشيعة صورة على في مظاهر كونية يتجلى لهم فيها وتتوالى ظهوراته ، في مظاهر كونية كالقمر ، العرجون القديم ، حين ظهوره للخلائق .

ويظهر اسم عبد الله بن سبأ مرة ثانية في مشارف الكوفة مع قتلة عثمان . ثم يذكر البغدادي أنه حين بلغ على غلوا بن سبأ أو ابن السرداء هم بقتله ، ولكن ابن عباس نهاه عن ذلك خوفاً من أن يقال إن علياً يقتل أتباعه وخوفاً من الفتنة ، فنفاه على المدائن^(١) وإنما لتعلم فعلا أن المدائن كانت فيما بعد من مراكز الشيعة الغالية .

أما مؤرخو الشيعة الأقدمين ، فقد اعتبروا عبد الله بن سبأ حقيقة تاريخية لاشك فيها . ويذهب سعد بن عبد الله أبو خلف الأشعري القمي (المتوفى سنة ٣٠١ هـ) إلى أن أول من قال بالغلوفى على هو « عبد الله بن سبأ » ويذكر أن اسمه عبد الله بن وهب الراسبي الهمداني ، وأن مما ساعده على نشر آرائه عبد الله بن حرس وابن أسود ، وأن هذين الأخيرين كانا من جلة أصحابه . ويذكر أبو خلف أن ابن سبأ كان أول من أظهر الطعن على أبي بكر وعمر وعثمان والصحابه ، وأعلن التبرأ منهم ، وأن الإمام علياً نفسه أمره بهذا . وأن التوبة لا تجوز ولا تحل ثم أظهر الغلو بعد ذلك في على ولما بلغ الأمر علياً ، استدعى ابن سبأ وسأله فأقر ، فأمر على بقتله ، فاجتمع الناس من كل ناحية وصاحوا : يا أمير المؤمنين أقتل رجلاً يدعو إلى حبكم أهل البيت ، وإلى ولايتك والبراءة من أعدائك فسيره على إلى المدائن . ويذكر أبو خلف القمي نصاً آخر أن عبد الله بن سبأ كان يهودياً فأسلم ووالى علياً . وأنه كان يقول في يهوديته أن يوشع بن نون وصي موسى ، فقال في إسلامه بعد وفاة الرسول في على بمثل هذه المقالة . وهو أول من شهد بالقرول بفرض إمامة على وأظهر البراءة من أعدائه ، وكاشف مخالفيه وكفرهم . ويرى ابن خلف أن من خالف الشيعة استتجوا من هذا أنه الرفض - ويبدو أن الرفض هنا بمعنى رفض الشيخين - مأخوذ من اليهودية^(٢) ويذهب معاصره النوبختي^(٣) (المتوفى بين عام ٣٠٠ و٣١٠) إلى نفس الرأي . ويكاد ينقل نفس النصوص ، وهى كلها ، تؤيد تبوت شخصية عبد الله بن سبأ كشخصية تاريخية وأهمية .

أود أن أنتهى من كل هذا ، وقبل أن نحدد تحديداً منهجياً آراء ابن سبأ أن ابن سبأ يظهر في كتب أهل السنة والجماعة كما يظهر أيضاً في كتب الشيعة كشخصية تاريخية حقيقية ، ولكن كاتب الشيعة

(١) البغدادي : الفرق ، ص ١٤٤ .

(٢) سعد بن عبد الله أبى خلف الأشعري : كتاب المقالات والفرق (نشرة الدكتور محمد جواد مشكور ١٩٦٣) ص ٢٠ .

(٣) النوبختي : فرق الشيعة . ص ٢٢ ، ٢٣ .

الكبير المعاصر الأستاذ الدكتور على الوردى يقدم لنا في براءة نادرة تحليلاً بارعاً لقصة عبد الله بن سبأ وينتهى إلى إنكار وجود هذه الشخصية إطلاقاً ويحاول أن يثبت أن ابن سبأ ، هو هو عمار بن ياسر ، ثم حمل النواصب من أعداء البيت العلوى ابن سبأ تلك الشخصية الرومية - تلك العقائد الناشئة المنتشرة في كتب العقائد والتي لعنبا أهل السنة والجماعة جميعاً ، كما لعنبا الشيعة الإمامية أيضاً^(١) وكذلك فعل الدكتور كامل مصطفى الشيبى في بحثه الرائع « الصلة بين التصوف والتشيع » . وقد أبرز وثائق جديدة تبين التطابق التام بين شخصيتى عبد الله بن سبأ وعمار بن ياسر^(٢) . ثم إن نسب أعداء الشيعة - من الأمويين إلى شخصية ابن سبأ أو بمعنى أدق شخصية ابن ياسر تلك الآراء الغالية ، التي لم ينطق بها أبداً .

ومن المحتمل أن تكون شخصية عبد الله بن سبأ شخصية موضوعة ، أو أنها رمزت إلى شخصية ابن ياسر ، كما فعل الأمويون بكلمة أبى تراب والترايين ، وقد كان كنية أبى تراب إحدى كنى على ، وخدع معاوية الطليق والأمويون معه أهل الشام بدعواهم أنهم يحاربون أبى تراب والترايين . ومن المحتمل أن يكون عبد الله بن سبأ هو مجرد تغليف لاسم عمار بن ياسر وبخاصة أننا نرى زياد بن أبيه يصم حجر بن عدى وأصحابه بالسبأين في رسالته إلى معاوية . وليس من المعقول قطعاً ، أن يكون حجر بن عدى الصحابى الكبير من أتباع يهودى يفسد على المسلمين دينهم . أرى أن كل هذا محتمل ، وأن الأمويين أخفوا اسم عمار بن ياسر الصحابى الكبير تحت اسم ابن سبأ حتى لا تتورثاثة أهل الشام ، حين يعلمون أن ابن ياسر والمقتضين حوله هم أتباع على ولكن لاشك أن آراء السبأية المتفالية وجدت ووجدت صدى لدى الطائفة التالية لها في الغلو وهى الكيسانية . ولا يمكن أن تظهر الآراء فجأة في مجتمع من المجتمعات ، بل لابد لها من أرض تنمو فيها ، وتزدهر ، وتورق . وهذا ما حدث تماماً في الآراء السبأية . أو بمعنى أدق إني أقول - إنه من المرجح أن يكون عبد الله بن سبأ هو عمار بن ياسر ، ومن المرجح أن النواصب حملوا كذباً عمار بن ياسر كل تلك الآراء التي لم يعرفها قط ولم يقل بها قطعاً . ولكن من المؤكد أن كثيراً من آراء السبأية قد ظهر إبان ذلك الوقت ووجدن بيئة صالحة للنمو . ولا يعني أبداً إذا كانت هذه الشخصية قد ظهرت أم لم تظهر . وإنما ما يهتأ أن نقره أن الجامع اليهودية من ناحية والغنوصية من ناحية أخرى وجدت في انقسام المسلمين إبان ذلك الوقت فرصة لا تعوض لإلقاء بذور الفتنة بينهم ، فألقت في مجتمع الكوفة والمدائن بآراء ، يمكننا أن نطلق عليها الآراء السبأية ، سواء أكان صاحب الاسم حقيقة أم أكنوبية .

(١) الدكتور على الوردى : وعاظ السلاطين ص ٢٧٤ - ٢٧٨ .

(٢) الدكتور كامل مصطفى الشيبى : الصلة بين التصوف والتشيع ، الجزء الأول ص ٢٦ - ٣٩ .

أما الآراء السبائية فهي أولاً : الوصية ، أى أن علياً وصى للرسول ، فالإمامة له نصاً « وكان في اليهودية يقول في يوشع بن نون وصى موسى »^(١) ثم أعلن ألوهية « علي » وذهب أتباعه إلى علي في الكوفة وقالوا له « أنت أنت » « فلما سألتهم جلية الأمر ، قالوا له أنت الله ، فأوقد علي ناراً لهم ودعا مولاه قنبراً واستتابهم ، فلم يتوبوا ، فأمره بإلقائهم في النار . وكانوا يصيحون : أنت الإله حقاً . فإنه لا يعذب بالنار إلا الله . وكان علي يردد .

ولما رأيت الأمر أمراً منكراً أوجبت ناراً ودعوت قنبراً^(٢)

ثانياً : معراج علي الروحي - أى الصعود إلى السماء يقول البغدادي « لما قتل علي ، زعم ابن سبأ أن المقتول لم يكن علياً ، وإنما كان شيطاناً تصور للناس في صورة علي وأن علياً صعد إلى السماء كما صعد عيسى بن مريم عليه السلام ، وكما كذبت اليهود والنصارى في دعواها قتل عيسى : كذلك كذبت النواصب والخوارج في دعواها قتل علي ، وإنما رأيت اليهود والنصارى شخصاً مصلوباً شبيهه بعيسى . كذلك القائلون بقتل علي رأوا قتيلاً يشبه علياً . فظنوا أنه علي ، وعلى قد صعد في السماء وأنه سينزل إلى الدنيا ويستقم من أعدائه^(٣) . » ويذكر أبو خلف القمي أنه حين اتصل خبر موت علي بعبد الله ابن سبأ وجماعته في المدائن ، قالوا لمن أخبرهم بوفاته : كذبت يا عدو الله لوجئتنا بدماعه في سبعين صرة فأقتل علي قتله سبعين عدلاً ما صدقناك : ولعلمنا أنه لم يموت ولم يقتل ، وأنه لا يموت حتى يسوق العرب بعصاه ، ويملك الأرض ، ثم ذهبوا إلى الكوفة واستأذنوا في الدخول عليه ، فأخبرهم من حضر من أولاده وأهله « سبحان الله ما علمتم أن أمير المؤمنين قد استشهد » قالوا : « إنا نعلم أنه لم يقتل ولا يموت ، حتى يسوق العرب بسيفه وسوطه ، كما قادمهم بحجته وبرهانه ، وأنه ليسمع النجوى ويعرف ما تحت الديار العتل ! ويلمع في الظلام ، كما يلمع السيف الصقيل الحسام ، ويلق القمي^(٤) بأن هذا مذهب السبائية ومذهب الحزبية أصحاب عبد الله بن عمر بن حرب الكندي في علي .

ثالثاً : ومن آراء السبئية أن علياً إله العالمين ، وأنه توارى عن خلقه سخطاً منه عليهم وسيظهر . ويرى البعض منهم أن علياً في السحاب ، وأن الرعد صوته ، والبرق سوطه ، وإذا سمعوا صوت الرعد أوراوا السحاب يقولون : السلام عليك يا أمير المؤمنين . بل ويضعون على لسان إسحاق بن سويد العدوي أنه قال :

(١) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٩٠ .

(٢) الملطى التبييه ص ٢٥ .

(٣) البغدادي : الفرق بين الفرق ص ١٤٣ .

(٤) ابن خلف القمي : كتاب المقالات ص ٢٠ ، ٢١ والوحي ص ٢٣ .

برئت من الخوارج لست منهم من الغزال منهم وابن باب
ومن قوم إذا ذكروا عليا يردون السلام على السحاب
ولكني أحب بكل قلبي وأعلم أن ذلك من الصواب
رسول الله والصديق حبا به أرجو غداً حسن الثواب (١)

ويبدو أن هنا أيضاً أول بذور لأفكار التوقف والمهدية والغيبة والرجعة ، والقول بتناسخ الجزء الآهي
في الأئمة بعد علي . ومن المحتمل أن تكون هذه الآراء متأخرة ، وأنها ظهرت من الحرية كما سنرى
بعد .

ويذهب الإسفرائيني أخيراً إلى أنه بعد قتل علي قام عبد الله بن سبأ يقول لأهل الكوفة « والله
لينبطن لعل في مسجد الكوفة عينان ، تفيض إحداها عسلا والأخرى سمنا ، ويعترف منها
شيعة (٢) .

هذا يجمل آراء السبائية . فما هو الحكم الصحيح على تلك الآراء . إنها لا تمثل في أول الأمر
فرقة ، ولكن هي الآراء الفوكلورية محملة بالحشو اليهودي والغنوصي والتي تنتشر ممجدة الأبطال
الكبار ، حين يموتون ، ويشعر أتباعهم بالحسرة ، وقد كاد صاحب الثانی عمر بن الخطاب أن يقع في
نفس الأمر حين علم بانتقال النبي صلوات الله عليه إلى الرفيق الأعلى : فأعلن أن محمداً لم يميت ، وأنه
إنما رفع إلى السماء ، وأنه سيعود ثانية . قائلًا : والله ما مات رسول الله ولا يموت ، وإنما تغيب كما
غاب موسى بن عمران عليه السلام أربعين ليلة ثم يعود ، والله ليقطعن أيدي قوم وأرجلهم ، ولكن
أبا بكر أسكته وقال « من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله ، فإن الله حي
لا يموت ثم قرأ « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم »
فرجع الناس إلى قول أبي بكر : وقال عمر : والله لكأنني ما قرأتها قط . ثم قال . لعمرى لقد أيقنت
أنك ميت ولكمأ أبدى الذي قلته الجزع (٣) .

لا جرم أن يظهر بعد ذلك وقد اختلط العرب بعلوج القرمس حينئذ وبيعض أحبار اليهود وعدد من
اليهود المستسلمة وفي أوساط الكوفة تلك الآراء السبائية أو بعض منها ، ثم أضافت النواصب ، الكثير ،
منسوبة إلى عبد الله بن سبأ أو عمار بن ياسر .

(١) الشهرستاني (المتوفى سنة ٥٤٨-١١٥٣م) الملل والنحل ج ١ ص ٢٩١-٢٩٣ .

(٢) الإسفرائيني ، البصير في الدين ص ٨٥ .

(٣) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ١٥ : والبغوي تاريخ - ج ٢ ص ٦٥ .

الفصل الرابع

صورة علي

عند أهل السنة والجماعة والشيعة المعتدلة

لم يتنازع أبا بكر وعمراً طائفتا المسلمين الكبيرتان ، فبينما تولى أهل السنة والجماعة الشيخين ، أنكرهما الشيعة إنكاراً كاملاً ولعنوا من على منابرهم الغاصيين علماً إمامته ، حتى يومنا هذا . أما على بن أبي طالب ، فقد تنازعه أهل السنة والجماعة كما تنازعه الشيعة ، تدعيه أهل السنة لهم ويدعيه الشيعة لهم . وأورد هؤلاء على لسانه - إن حقاً وإن باطلاً - أحاديث تؤيد سنته ، بينما حمله هؤلاء الشيعة ما يطبق وما لا يطبق من أحاديث وآثار وآراء تؤيد وجهة نظرهم ، وتثبت ما ارتأوه هم فيه . وسنعرض بإيجاز لرأى كل منهم فيه .

أما أهل السنة فيعلنون أن أسلافهم الأول قد رأوا في علي بن أبي طالب أول غلام آمن ، وقد عاش في حجر النبوة ورعاه الرسول قبل بعثته ، كما رعته أم المؤمنين الأولى - خديجة - برعايتها وحبها وحدها ، ووقف الطفل المكي - منذ اللحظة الأولى للنبوة - بجانب صاحبها في الكبير وفي الصغير . ولا يقل إعجاب أهل السنة عن إعجاب الشيعة به حين تركه الرسول في فراشه ليلة الهجرة تحرسه الملائكة ، وهو يواجه قريشا العاتية . ثم هاجر إلى المدينة مع فاطمة الزهراء . وبدأت الحروب ، وفتى بنى هاشم يحمل سيفه المنايا ، يحطم بها عتاوله القرشيين ، ويكلم كل بيت من بيوتهم . وكم فدى الرسول بنفسه في معظم مواقع القتال . وهو إذن تلميذ محمد صلى الله عليه وسلم الأول .

ويعلن أهل السنة أيضاً أن علماً عالم المسلمين وفقههم ، مصداقاً للحديث « أنا مدينة العلم وعلى بابها » فقه القرآن كما فقه السنة ، وغاص في أعماق كل منها وكان فقيه أبي بكر - فيما بعد - كما كان فقيه عمر : ويذهب أهل السنة بلاشك إلى أنه أفقه من الصاحبين ، بل من الصحابة جميعاً وقد عاش عند أهل السنة والجماعة عيشة إيثار وإنكار لذاته في حياة كل من الشيخين .

ويرى أهل السنة والجماعة أنه رابع الخلفاء الراشدين . وأن الخلفاء الثلاثة قد سبقوه بفضل إمامة المؤمنين بعد الرسول ﷺ . ويعلن أهل السنة أيضاً أنه كان على حق في قتاله أصحاب الجمل ومعاوية

وأخيراً - إنه الوحيد من بين الصحابة الذي احتفظ بكلمة الإمام في كتب أهل السنة ، ودعاه الحسن البصرى « رباني هذه الأمة » ويرغم كل ما قام به الأمويون من دعاية ، وما أعلنه النواصب من عداوة لعل ، فقد احتل ابن عم الرسول وصهره عند أهل السنة والجماعة المكان الأول في الحياة الروحية للمسلمين . رفعه أهل السنة والجماعة - على جميع الصحابة بلا استثناء - روحياً على مقام كل من أبي بكر وعمر ، ولكن سياسياً وضع في النسق رابع خلفاء محمد ﷺ .

أما الصوفية ، وهم في مجموعهم أهل سنة وجماعة ، فكان الإمام على رأس سندهم وقفة سلسلهم ، وإليه نهاية الطريق . ووضعوا على لسانه آثاراً وستناً كثيرة ، ونسبوا إليه أسرار العلم الباطن ، وإليه يتشوف الصوفى السنى .

إن ما نتخلص من هذا أن أهل السنة والجماعة - اللهم إلا السلف المتأخرون ، رأوا في أبي بكر صاحب الأول - وصاحب الصلاة على الخصوص ، وفي عمر مؤسس الدولة الإسلامية وواضع الأسس الحقيقية لها ومنشؤها ، وفي على صاحب الروح .

أما الشيعة - فقد أطلقوا أيضاً على لسان بعض أسلافهم - من كبار الصحابة الأحاديث النبوية التي تثبت إمامته بعد الرسول ﷺ وبعض تأولات الشيعة صحيحة وبعضها غير صحيح ، كما فسروا أيضاً كما قلت من قبل بعض الآيات القرآنية تفسيراً خاصاً يؤدي إلى القول بإمامة على وخلافته منذ اليوم الأول . ثم أثبتوا له الوصاية ، « أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لاني بعدي » والحديث الآخر « السابق إلى موسى يوشع بن نون والسابق إلى عيسى صاحب يامين حبيب النجار ، والسابق إلى محمد على بن أبي طالب وهو أفضلهم » أي أفضل أوصياء الأنبياء جميعاً .

وذهب الشيعة الأوائل إلى ولاية على وعصمته وأنه وارث العلم النبوي الخاص الذي لم يطلع عليه النبي غيره حين أدركته منيته . وفي الكوفة أيضاً آمن الشيعة أن الرسول ﷺ ترك لعل كلاً خاصة ، ثم حددت الشيعة المتأخرة هذه الكتب بالكتب الآتية : مصحف فاطمة ، وعلى هامشه علم ما كان وما يكون وما هو كائن . وقد أملاه النبي على وصية صاحب الأمر بعده ، وكتاب الجفر الجامع أو الجامعة وفي هذه الجامعة صحف الأنبياء ففيه صحيفة آدم أورثها لابنه شيث ، فأضاف إليها ، ثم إدريس ، ثم صحف إبراهيم وموسى وعيسى ثم خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم وصحفه ، وقد أورث محمد ﷺ هذا إلى على خاتم الأوصياء ، ثم كتابان آخران هما - الجفر الأبيض والجفر الأحمر ، أما الجفر الأحمر فهو خاص بالقائم ، كيف يقضى بالسيف على أعدائه ، أما الأبيض ، ففيه جزءان - كتب الأنبياء وصحفهم ، ثم الحلال والحرام ، ثم تفسير الاسم لأعظم وأسراره والصحيفة .

وصور الشيعة علياً ويده كرامات لا تقل عن المعجزات ، وعددوا هذه الكرامات ، بل تكلموا

عن بدء وجوده « كنت أنا وعلى بن أبي طالب قبل أن يخلق آدم بأربعة عشر ألف عام فقط ، فلما خلق الله آدم ، انتقل النور في الأصلاب لطاهرة والأرحام الزكية حتى صار في عبد المطلب ، فانقسم النور قسمين : قسم في عبد الله وقسم في أبي طالب ، فكان لي النبوة ولعل الوصية » .

وعين الشيعة موضع علي في تلك الحادثة الممتازة ، حادثة المعراج . فقد سأل محمد ﷺ - بأمر ربه - النبيين عن سبب رفعهم إلى هذه الدرجة ، فشهدوا جميعاً « بأننا رفعنا بفضل نبوتك وإمامة علي بن أبي طالب والأئمة من صلبك » فجاء النداء أن انظر إلى بين العرش - فنظرت فإذا بأشباح علي وبنيه وحفدته وهم يصلون في بحر من النور فقال الله تعالى « هؤلاء حججتي وأوصيائي وأوليائي ، وينتقم آخرهم من أعدائي ، « وفي السماء الرابعة رأيت ملك الموت ، فأخبرني أنه مأمور بقبض أرواح الكائنات إلا روحى وروح علي ؛ فإن روحكما سيقبضها الله بنفسه بيد القدرة » ورأيت ليلة المعراج أنه قد كتب علي كل حجاب من النور وكل قائمة من العرش - أن لا إله إلا الله - محمد رسول الله ، علي ابن أبي طالب أمير المؤمنين ، وقد أعطى الله آدم خمسة عشر حرفاً من حروف الاسم الأعظم . ونوحاً ثمانية ، وإبراهيم حرفاً ، وموسى أربعة ، وعيسى اثنين ، وأعطى محمداً اثنين وسبعين فلسماً علياً . هذه نظرية الشيعة المعتدلة ، في أساطير الكوفة ، والمدائن ، وفي العراقيين على العموم .

وبات علي ليلة اغتياله ، وهو يعلم تماماً أنه مغادر الدنيا ، ولم يزل يمشي بين الباب والحجرة ، وهو يقول « والله ما كذبت ولا كذبت وأنها الليلة التي وعدت (١) » . وكان يردد « ما يجس أسفاها ، فو الذى نفسى بيده لتخضن هذه من هذه » ، « وخرج علي في الفلج للصلاة - فتبعه أوز-كن في الدار فتعلقن بثوبه فحاول بعض أهله منعهن . فقال ويحك - دعهن - فإنهن نوائح » وهجم عليه عبد الرحمن بن ملجم وقتله (٢) ، ولما مات قام الحسن عليه السلام خطيباً ثم قال « ألا إنه قد مضى في هذه الليلة رجل لم يدركه الأولون ولن يرى مثله الآخرون » من كان يقا تل وجبريل عن يمينه ، وميكائيل عن شماله - والله لقد توفى في الليلة التي قبض فيها موسى بن عمران ورفع فيها عيسى بن مريم « وأنزل القرآن » ألا وإنه ما خلف صفراء ولا بيضاء . ثم قام الققعاق بن زرارة على قبره وقال « رضوان الله عليك يا أمير المؤمنين ، فوالله لقد كانت حياتك مفتاح خير ، ولو أن الناس قبلوك لأكلوا من فوقهم ولكنهم غمطوا النعمة وآثروا الدنيا على الآخرة (٣) » ، ودفن علي في النجف قريباً من الكوفة . وأعلن الشيعة الإمامية المعتدلة أن النبي إبراهيم ذكر « أنه سيكون في هذا المكان قبر عليه مشهد عظيم يفوز به سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ويشفعون لغيرهم . وهذا المكان هو وادى السلام وهو

(١) البيهقي : تاريخ . ج ٥ ص ٢٦٧ / ٥٣٨ .

(٢) البيهقي : تاريخ ج ٢ ص ١٩ .

(٣) البيهقي : تاريخ ج ٥ ص ١٥٥ .

جزء من جنة الله الباقية ، وإليه تحشر أرواح الشيعة ، وكأني بهم قعود يتحدثون » .
 وإلى هذا القبر يجمع الشيعة الإمامية من كل فج ، ويقفون أمامه باكين الإمام المعصوم ، أول الأئمة الصابر على الغضب ، المقتول ظلماً وعدواناً ويلتصون منه الشفاعة في اليوم الآخر ، ومن قبره الشفاء في هذه الحياة الدنيا ، وينادون صاحب العصا والميسم ، وقسم الجنة والنار ، ووارث التبيين ويهتف الشيعة منهم « أشهد أنك كلمة التقي والأصل الثابت » .

ومن العجب ، أن هؤلاء الشيعة ، قبل أن يخطوا باب المشهد يتجهون نحو يثرب مدينة الرسول محمد ﷺ ويصيحون « أأذن يا رسول الله أن أدخل على عليّ ابن عمك وزوج ابنتك » ولكن حين يتخطون الباب الخارجي ويقفون أمام جدث الإمام يرددون « السلام على ذات الله العليا ، السلام على ذات الله القائمة بالسنن ، السلام على المن والسلوى » ،

الفصل الخامس

المختارية والكيسانية

مقدمات الشيعة الحنفية

تولى « معاوية الطليق » وابن « آكلة الأكباد » - كما دعاه على وشيعته من بعده - الخلافة بعد مقتل علي بن أبي طالب ، وتنازل الحسن بن علي له عن الخلافة مصداقاً لحديث رسول الله ﷺ « إن ابني هذا سيد ولعل الله يصلح به فتيين كبيرتين من المسلمين » وصالح معاوية الحسن على أن يكون الأمر له من بعده . ولكن معاوية لم يكن يهدأ له بال وحسن حتى ، ويبعثه له قائمة بعده ، ولذلك قرر قتله وتحلص منه بالسم (عام ٤٦ هـ) - فيما يقول الشيعة - ولست أبرأ معاوية . فلم يكن الرجل أبداً مسلماً تام الإسلام كان جاهلياً بمعنى الكلمة وكان على استعداد لارتكاب كل موبقة في سبيل ولده يزيد ، غير أن أقدم مصدر شيعي بين أيدينا يقرر أن الحسن مات من جراحته التي أصيب منها في مظلم ساباط بعد عودته من محاربة معاوية ولم يذكر أبداً قصة سمه (١) . وبكت الشيعة في الكوفة إمامها الثاني ، سيد شباب أهل الجنة وإحدى ريحانتي رسول الله وابن فاطمة الزهراء .

ومات الطليق آخر الأمر بعد أن قتل جماعة من كبار الصحابة صبرا - كحجر بن عدى وأصحابه . مات بعد أن بايع الناس بالخلافة لابنه يزيد ، وانتهى الأمر إلى ملك غاشم جاهلي يتوارثه الأمويون واحداً بعد واحد . ولم يقبل الحسين بن علي يعة يزيد وخرج إلى الكوفة ، إلى أنصاره وأنصار أبيه من قبل . ولكن ماليت القوم أن خدعوه وتخلوا عنه ، بل إن عبيد الله بن زياد أمير يزيد على الكوفة أرسل من أهل الكوفة أنفسهم من قام بقتله وقتل أولاده وأغلب الهاشمين معه . وكانت مذبة (عام ٦١ هـ) لم ير المسلمون لها مثلاً ، وقد لعن المسلمون جميعاً يزيد .

وخرجت نساء بني هاشم حواسر يبكين الحسين .

ماذا تقولون إن قال النبي لكم	ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم
بعتن وبأهلي بعد مفتقدى	نصف أسارى ونصف ضرجوا بدم
ما كان هذا جزأى إذ نصحت لكم	أن تخلفوني بشر في ذوى رحمي (٢)

(١) أبو خلف القمي : كتاب المقالات ص ٢٣-٢٤ . (٢) السعدي : مروج ج ٢ ص ٩٥ .

وقد بكى المسلمون الحسين بن علي حتى يومنا هذا ، واعتبروه سيد الشهداء جميعاً .
 أما الشيعة المعتدلة ، فقد ذكروا أن الرسول ﷺ أخبر بمصرعه ، وأن الملائكة جاءت يترب بيت
 المقدس إلى كربلاء ليدفن فيه الحسين ، وأنهم هبوا قبره قبل استشهاده بألف سنة ، وذكر الإمام
 الأول على حين مرّ بكربلاء « أن مائة نبي ومائة وصي ومائة من أبناء الأنبياء يشاققون لأن يدفنوا هنا » .
 ولقد كان مقتل الحسين أكبر حادث في تاريخ الإسلام السياسي والروحي . ولقد أصاب خلص
 المسلمين ذلة رامت عليهم أمداً طويلاً ، وأطلقت الأشعار في هذا فيقول سليمان بن قبة :

فإن قتيل الطف من آل هاشم أذل رقاب المسلمين فذلت

ولكن ما لبث الشعور العام أن انطلق في الكوفة حين قام التوابون بحركتهم الفدائية الكبرى وهم
 يقولون « أقلنا ربنا تفرطنا فقد تبنا » . وقد قتل التوابون - كما قلنا من قبل - في عين الوردية ، وتركوا
 للمسلمين حتى الآن أعظم المثل في الدفاع عن العقيدة والفناء فيها .

وفي ذلك الوقت ظهر المختار بن أبي عبيد (المتوفى سنة ٦٧ هـ) وكون الشيعة الحسينية . كان يزيد
 قد مات ، وابن الزبير على مكة يتحكم أيضاً في أعناق المسلمين ويلحد في آيات الله في البيت الحرام ،
 ولا يصل على الرسول نكايه في آل بيت رسول الله . وكان الإمام الرابع على زين العابدين بن الحسين
 قد اعترل الناس وكذلك فعل محمد بن الحنفية الابن الثالث لعلي بن أبي طالب من غير فاطمة
 الزهراء . وكان محمد بن الحنفية صاحب راية على يوم صفين ، وعلى جانب كبير من العلم والدين .
 ظهر المختار بن أبي عبيد إبان هذه الحوادث كلها . وقد جاول الزبيرية والأموية أن يشوهوا حركة
 المختار بن أبي عبيد تشويهاً دينياً ، وأن يتبعوا أخبار الرجل بكل نقیضة ، وأن يصبغوا عليها صبغة سبابة
 بل أشد ونسبوه أو خلطوا بينه عن سوء قصد وبين الكيسانية ، كما خلطوا من قبل بين أنصار علي
 المخلصين وبين السبابة .

أما عن نسبة فهو ابن أبي عبيد الثقفي ، وكان أبو عبيد من كبار الصحابة ، وكان يسكن الطائف ،
 ثم انتقل إلى المدينة في زمن عمر بن الخطاب ، وكان أبو عبيد من محبي علي ، وقد ذهب بابنه إليه
 ووضع بين يديه فسح على رأسه وقال « كيس ، كيس » فلزمه هذا الاسم (١) . ثم استشهد
 أبو عبيد وكان قائد المسلمين في واقعة الجسر . أما عن المختار فقد بقي في المدينة منقطعاً إلى بني هاشم .
 ثم انتقل إلى البصرة . وقد ذكر ابن كثير عنه أنه كان خارجياً ثم زبيرياً ، ثم شيعياً من أنصار علي زين
 العابدين ، ثم تركه إلى محمد بن الحنفية ونادى بإمامته وكل هذا خطأ تاريخي . فالرجل كان من محبي
 البيت العلوي - كما رأينا - خرج على رأس جماعة من السلاح في البصرة يريد نصر الحسين بن علي عليه

السلام فأخذه عيد الله بن زياد وضربه بالقضيب على عينه فشرها ثم سجنه وكان يقول في سجنه . « حتى إذا أمت عمود الدين وشفيت صدر المؤمنين ، وأدركت نار النبيين ، لم يكبر على زوال الدنيا ، ولم أحفل بالموت إذا أتى (١) . » وتدخل عبد الله بن عمر بن الخطاب زوج أخت المختار في أمره وأرسل إلى يزيد بن معاوية فيه ، فأمر يزيد عبيد الله بإطلاق سراحه وإخراجه من البصرة . وعاش المختار في الطائف . فلما وجد الأمر قد آل إلى عبد الله بن الزبير في أرجاء الحجاز ، شخص إلى الكوفة فوصل إليها وقد خرج سليمان بن صرد يطلب بدم الحسين عليه السلام واجتمعت إليه الشيعة في الكوفة ، ولم تكن لتجتمع عليه لو لم تعلم أنه من أكبر المخلصين لآل البيت فقال لهم : إن محمد بن علي ابن أبي طالب بعثني إليكم أميراً وأمرني بقتال المخلفين ، والطلب بدماء أهل البيت المظلومين - وإني والله قاتل ابن مرجانة والمنتقم لآل رسول الله ﷺ من ظلمهم (٢) .

ويذهب اليعقوبى - وهو أقدم مصدر تاريخي بين أيدينا إلى أن طائفة من الشيعة صدقته . ولم تصدقه طائفة وإنما خرجوا إلى محمد بن الحنفية ليسألوه عن حقيقة الرجل . فقال لهم « ما أحب إلينا من طلب بثأرنا وأخذلنا بحقتنا وقتل عدونا » فانصرفوا إلى المختار وبايعوه (٣) . وهذه دلالة على أن المختار بن أبي عبيد كان رجل محمد بن الحنفية ويقول ابن طباطبا « كان المختار رجلاً شريفاً في نفسه على الهمة . كريماً » (٤) واستولى المختار على الكوفة ، وأخرج عامل عبد الله بن الزبير عنها سنة ٦٦ . ونادى قائده المشهور إبراهيم بن مالك الحارث بن الأشتر « بالثارات الحسين » وتوجه بأمر المختار إلى الموصل لإنقاذها من جيش عبد الملك بن مروان وكان يقود جيش هذا الأخير « عيد الله بن زياد قاتل الحسين » معه من عاونه في قتل الإمام الشهيد . وانتهت الموقعة بانتصار جيش المختار وقتل قتلة الحسين جميعاً . وأرسلت رؤوسهم إلى محمد بن الحنفية وتبع المختار بن أبي عبيد كل من شارك في قتل الحسين وقتله .

وكان الذئب الغادر عبد الله بن الزبير يحكم مكة في ذلك الوقت . وقد نحامل على آل الرسول ، وأظهر لهم العداوة والبغضاء - بل إنه - في قلب البيت الحرام ترك الصلاة على رسول الله ﷺ في خطبته . فقيل له : لم تركت الصلاة على النبي ؟ فقال : إن له أهل سوء يشربون لذكركه ، ويرفعون رؤوسهم إذا سمعوا به .

ويذكر اليعقوبى أن عبد الله بن الزبير أخذ محمد بن الحنفية وعبد الله بن عباس وأربعة وعشرين رجلاً من بني هاشم وجسهم في حجرة زمزم . وأقسم لبيابن أولي حرقهم بالنار . وكتب

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٨٣ ، ١٠٨ . (٢) اليعقوبى : تاريخ ج ٢ ص ٧ .

(٣) اليعقوبى : تاريخ ج ٢ ص ٥ . (٤) ابن طباطبا : الفخرى في الآداب السلطانية ص ١٠٩ .

محمد بن الحنفية إلى المختار بن عبيد من سجنه ٥ بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن علي ومن قبله من آل رسول الله إلى المختار بن أبي عبيد ومن قبله من المسلمين . أما بعد : فإن ابن الزبير أخذنا فحبسنا في حجرة زمزم وحلف بالله الذي لا إله إلا هو لتبايعه أو ليضرمها علينا بالنار فياغوثة ٥ فأرسل المختار بن أبي عبيد جيشاً بقيادة أبي عبد الله الجدلي - في أربعة آلاف راكب ، فقدم مكة ، فكسر الحجر ، وأنقذ آل بيت رسول الله . وقال لمحمد بن علي : دعني وابن الزبير . أي أنه أراد قتل ابن الزبير ، ولكن محمد بن الحنفية أبي أن يدع أبا عبد الله الجدلي يقتل ابن الزبير وقال : لا أستحل من قطع رحمه ما استحل مني (١) . وأورد المسعودي نفس الواقعة (٢) . وخرج محمد بن الحنفية إلى رضوى وأقام بها . بل إنه في موسم الحج ، وقف محمد بن الحنفية في عرفات وفتة أمير المؤمنين . وتم الأمر لابن الزبير في الحجاز وأرسل أخاه مصعب بن الزبير لقتال المختار بن أبي عبيد - ودافع المختار عن الكوفة دفاع الأبطال حتى قتل شهيداً في محبة آل البيت العلوي عام (٦٧ هـ - ٦٨٦ م) . وقتل مصعب بن الزبير سبعة آلاف من أتباعه من الشيعة الحسينية (٣) غدرًا بالسيف وكانت إحدى العندرات الكبرى في تاريخ الإسلام ، بل قتل أيضاً زوجة المختار أسماء بنت النعمان بن بشير الصحابي حين رفضت أن تتبرأ من زوجها بعد موته وتلعنه : وقالت : إنه كان تقياً نقياً صواماً ، كيف أتبرأ من رجل يقول ربي الله ، كان صائم نهاره ، قائم ليله قد بذل دمه لله ورسوله في طلب قتلة ابن بنت رسول الله ﷺ وأهله وشيعته فأمكنه الله منهم حتى شفى النفوس ٥ وحين قدمت للقتل ، قالت : شهادة أرزقها فأتركها كلا إنها موتة ، ثم الجنة ، والقدم على الرسول وأهل بيته ، والله لا يكون آت مع ابن هند فأتبعه ، وأترك ابن أبي طالب ، اللهم اشهد أني متبعة لنبيك وابن بنته ، وأهل بيته وشيعته ٥ وقدمت للموت فقابلته بشجاعة نادرة .

كل هذه دلائل واضحة على أن المختار بن أبي عبيد كان رجلاً تقياً ممتازاً في دينه . مقاتلاً في سبيل أهل البيت . بل إن المختار يعلن في آخر مواقفه بعد أن قتل محمد بن الأشعث الكندي - وكان أيضاً من قتلة الحسين ٥ طابت نفسى بقتله ، إن لم يكن قد بقي من قتلة الحسين غيره ، ولا أبالي بالموت بعد هذا (٤) .

وقد مدح أهل البيت جميعاً المختار بن أبي عبيد . مدحه شيخ بني هاشم عبد الله بن عباس فيما يروى ابن الأثير (٥) بل تجمع المصادر السنية أنه كان يرسل المال من خراج العراقيين إلى

(٤) البخاري : الفرق بين الفرق ص ٣٢ .

(٥) ابن الأثير : تاريخ ج ٤ ص ٨٤-٨٤ .

(١) اليعقوبي : تاريخ ج ٢ ص ٧ .

(٢) المسعودي : مروج ج ٢ ص ١٠٠-١٠١ .

(٣) نفس المصدر : مروج ج ١ ص ٣٥ .

عبد الله بن عمر وابن عباس وابن الحنفية وغيرهم فيقبلونه منه . وكان الإمام علي زين العابدين يقبل هداياه ومنها أم ولد ولدت له الإمام زيد بن علي (١) وقد دعا له الإمام زيد . كما شكره الإمام محمد الباقر على أخذه بثأر الحسين وترحم عليه هو والإمام جعفر الصادق . وليس من المعقول قط أن ينتسب إلى محمد بن الحنفية وفي الآن عينه يضع نفسه في مرتبة أعظم من مرتبة الإمام . إن الشهرستاني نفسه يذكر أنه انتظم له ما انتظم بأمرين : أحدهما انتسابه إلى محمد بن الحنفية علماً ودعوة والثاني قيامه بثأر الحسين عليه السلام واشتغاله ليلاً ونهاراً بقتال الظلمة الذين اجتمعوا على قتل الحسين (٢) .

هذه حقيقة المختارين أبي عبيد وقد تنكب الحقيقة الكثيرون من الباحثين ، لقد ملأت الزبيرية أولاد الزبيرين العوام الدنيا بالدعوى الكاذبة حول المختار . وقد كانوا طلاب دنيا أكثر من الأمويين ، بل من الثابت أنهم أفسدوا أباهم ودعوه إلى حرب اقتتل فيها المسلمون قتالاً عنيفاً ، وذكر علي بن أبي طالب نفسه أن الزبير بن العوام كان على الحق حتى غيره أبناؤه ، كذلك قامت الأموية بما كان لها من قوة الحكم والسلطان والمال بيت الدعوة ضد المختارين أبي عبيد فقد حارب الرجل اللاتين حرباً عنيفة وقتلها في سبيل حب آل البيت أشد قتال . وتابعه عطاء الكوفة من أمثال عبد الله الحر وإبراهيم بن مالك الأشتر . وهما من عيون رجال الكوفة ، ويقول صاحب الفرق بين الفرق « ودخل في بيته عبد الله بن الحر الذي لم يكن في زمانه أشجع منه وإبراهيم بن مالك الأشتر ، ولم يكن في شيعة الكوفة أجمل منه ولا أكثر منه تبعاً (٣) » .

إن الخطأ الذي وقع فيه بعض مؤرخي العقائد من الشيعة وأهل السنة أنهم خلطوا بين المختارين أبي عبيد وبين شخصية أخرى معاصرة له - وهي شخصية كيسان . فيذهب مؤرخ شيعة قديم كأبي خلف القمي ويتابعه النوبختي إلى أن الكيسانية إنما سما بذلك لأن رئيسهم الذي دعاهم إلى ذلك المختارين أبي عبيد الثقفي وكان لقبه كيسان . ثم يذكر أيضاً في فقرة أخرى أنه لقب بكيسان وهو لقب صاحب شرطته (٤) ومرة ثالثة أن محمد بن الحنفية « استعمل المختارين أبي عبيد الثقفي على العراقيين بعد قتل الحسين ، وأمره بالطلب بدم الحسين ونائره ، وقتل قتله ، وطلبهم حيث كانوا ، وسماه كيسان لكيسه ، وما عرف من قيامه (٥) » وذهب مؤرخو السنة جميعاً إلى نفس الرأي ، وإن كان البغدادي قد

(١) أبو الفرج الأصبهاني : مقاتل الطالبين ص ٩٢ .

(٢) الشهرستاني : اللؤلؤ ج ١ ص ٢٢٢ .

(٣) البغدادي : الفرق ص ١ .

(٤) أبو خلف القمي : كتاب المغالات والفرق ص ٢١ والنوبختي : فرق الشيعة ص ٢٣ .

(٥) أبو خلف القمي : كتاب المغالات ص ٢٦ والنوبختي : فرق الشيعة ص ٢٧ .

تنبه إلى حد ما إلى حقيقة الأمر فقال « وكان المختار يقال له كيسان وقيل إنه أخذ مقالته عن مولى لعل رضى الله عنه كان اسمه كيسان (١) » .

ومن هذا نرى أننا أمام شخصيتين مختلفتين ، المختار وكيسان ، ومن الواضح أن البغدادى يحاول أن ينسب في النص السالف لكيسان مولى على ، وهذا خطأ فإن كيسان مولى على كان قد مات قبل حركة المختار ، فنحن إذن أمام كيسان آخر متأخر عن عصر الإمام على أو بمعنى أدق أمام شخصية سمت باسم كيسان مولى على بن أبى طالب .

وقد كشف لنا ظهور كتاب المقالات والفرق لأبى خلف القمى عن حقيقة كيسان هذا . فهو أبو عمرة السائب بن مالك الأسعدى المتوفى سنة ٦٧ هـ وكان يجاور المختار بن أبى عبيد فى سكنه وكان صاحب سره ومؤامراته فلما قام المختار بن أبى عبيد بحركته ، جعله صاحب شرطته (٢) . ويذهب الطبرى إلى أنه كان مولى غزينة أو مولى بجيلة (٣) . وهو أعجمى فيها يقول الشعبي (٤) . وجاور المختارين أبى عبيد ، وأنه كان يزكى الشيعة ويهاجم عثمان وضرب لذلك بالسياط (٥) ، ويبدو أنه هو الذى عاون المختار على الطلب بئار الحسين وقتل أعدائه ، وأنه دله على قتلته ، وتبعهم بنفسه واحداً فواحداً ويقول الدينورى « إن المختار ولى الشرطة كيسان أبا عمرة ، وأمره أن يجمع ألف رجل من الفعلة بالمعاول ، ويتبع دور من خرج إلى قتال الحسين بن على فيهدمها ، وكان أبو عمرة بذلك عارفاً ، فجعل يدور بالكوفة على دورهم فيهدم الدار فى لحظة . فمن خرج إليه منهم قتله ، حتى هدم دوراً كثيرة . وقتل أناساً كثيرين ، وجعل يطلب ويستقصى ، فمن ظفر به قتله ، وجعل ماله وعطاءه لرجل من أبناء المعجم الذين كانوا معه (٦) ويرى المؤرخون أنه تجاوز المختار فى القول والفعل والقتل ، أى أنه غلا فى عقيدته أكثر من المختار ، كما أنه أيضاً غلا فى قتل أعداء الحسين بن على وقائله . وكان يقول إن المختار وصى محمد بن الحنفية وعامله ، وكان يكفر من تقدم علياً ، ويكفر أهل صفين وأهل الجمل . بينما كان المختار لا يكفر من تقدم عليه ولكنه كان يكفر أهل صفين وأهل الجمل (٧) وهذه المقارنة بين الاثنين تستدعى النظر ، كان المختار ابناً لصحابى كبير ، نشأ فى رحابه ، ورأى كيف استشهد أبوه فى عهد الشيخين فتولاها ، ولكنه أحب علياً ، فكفر كل من حاربه منذ ولايته الفعلية ، بينما أحب أبو عمرة علياً حبا ملك عليه كل نفسه ، وجعله ينكر إمامية الشيخين وعثمان من قبل . وأخيراً يذكر

(١) البغدادى : الفرق ص ٣١ .

(٥) الطبرى : تاريخ ... ج ٢ ص ٦٣٤ .

(٢) أبو خلف القمى : كتاب المقالات والفرق ص ٢٢ ، ٢٣ . (٦) الدينورى : الأخبار . ص م ٢٩٣ .

(٣) الطبرى : ج ٣ ص ٦٣٤ .

(٧) أبو خلف القمى : كتاب المقالات ص ٢٢ .

(٤) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

أبو خلف والنوبختي أن أبا عمرة كان يزعم أن جبريل يأتي المختار بالوحي من عند الله . فيخبره بذلك ولا يراه . وأن جبرائيل وميكائيل يتزلان عليه بالوحي (١) فكان كيسان إذن هو الذي صور المختار بهذه الصورة ، إن صحت هذه النصوص التي أوردتها مؤرخو الفرق . ولكننا نرى البغدادي يذكر بأن المختار - بعد أن تمت له ولاية الكوفة والجزيرة والعراقين إلى حدود أرمينية تكهن وسجع كأسجاع الكهنة وادعى نزول الوحي إليه (٢) ولكنه ما يلبث أن يقول بأن السبابة هي التي خدعت المختار ، وأهم قالوا له : أنت حجة هذا الزمان ، ثم حملوه على دعوى النبوة فادعاهما عند خواصه ، وزعم أن الوحي يتزل عليه ، وسجل بعد ذلك (٣) . ولم يذكر البغدادي هنا الكيسانية ، بل ذكر السبابة الغلاة من الروافض . والرافضة لم تظهر في أيام المختار ، والشهرستاني - لا يذكر أبداً أن المختار قد أعلن نبوته ونزول الوحي إليه ، بل ذكر أنه كان يدعو إلى محمد بن الحنفية ، ويظهر أنه من رجاله ودعائه . ويذكر علوماً مزخرفة ينوطها به (٤) ، أي أنه غلا إلى حد ما في حب محمد بن الحنفية ، وأن محمد بن الحنفية لما وقف على هذا تبرأ منه ، وتفسير هذا أنه نسب إلى محمد بن الحنفية علوماً كثيرة سرية ، وأن محمد بن الحنفية أنكر هذا . وهذا خطأ ، فلم يكن المختار بن أبي عبيد من رجال السحر والتمائم ، ولم يكن غنوصياً ، إنما كان رجلاً مقاتلاً لساناً فصيحاً ، تولى الشيخين أبا بكر وعمر ، ولكنه أحب أهل البيت وآمن بأحقية علي بن أبي طالب وابنه الحسين ، فقاتل قتالاً عنيفاً في هذا السبيل ، ونراه يقتل زوج أخته عمر بن سعد وابن أخته جعفر بن عمر ، ولا يأبه بقرابتهما له . ثم نراه بعد . يؤمن بمحمد بن الحنفية ، ويدعو له .

أما إذا كان هناك غلو في عهد ولاية المختار للكوفة ، فقد قام به كيسان أو أبو عمرة ، وإن كان هناك شك أيضاً في أن الآراء الغالية قد ظهرت منه . كان أبو عمرة من محبي أهل البيت ، فلما واثته فرصة الانتقام من أعدائه ، انتهبها بكل قواه ، فكان يقاتل ويقتل كل من شارك في قتل الحسن ، ويهدم داره ، ويقتل كل ما فيه من ذى روح . وقد خرب دوراً كثيرة ، وقتل الكثيرين من أعداء الحسين ، وبقيت ذكراه في الكوفة أمداً طويلاً بحيث كان أهلها يضربون به المثل ، فإذا أصاب الفقر إنساناً قالوا دخل أبو عمرة بيته ، وخلد الشاعر ذكرى أبي عمرة فيقول :

إبليس بما فيه خير من أبي عمره يفويك ويطغيك ولا يعطيك كسره

(١) نفس المصدر السابق والنوبختي : فرق : ص ٣٣ .

(٢) البغدادي : الفرق . ص ٣٩ .

(٣) البغدادي : الفرق ص ٣١ .

(٤) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٣٧ .

عاون أبو عمرة المختار بن أبي عبيد ، في الكوفة ، ويدولمه كان أعجمياً ، ولذلك نراه يجمع العجم الحمراء ، وأرسلهم مع إبراهيم بن الأشتر حيث قتلوا قتلة الحسين (١) وقد قتل أبو عمرة في واقعة المذار عام ٦٧ للهجرة (٢).

وهنا نساءل : هل كان أبو عمرة حقاً غنوصياً ، وهل كان على صلة بمجماعات ثنوية ومسيحية ويهودية ، نفثت سمومها فيه . ثم حملها هو وأتباعه إلى شيعة الكوفة . ومن ثم نسبت للمختار . ليس لدينا نصوص قاطعة تثبت هذا ، إن كل ما لدينا من وثائق تثبت أنه كان مولى لقبيلة بجيلة ، وأنه عاش في هذا الوسط القائم من الأحران على علي وبنيه ، وقد تبنت هذه القبيلة الغلو فيما بعد ، ولكن هل كان أبو عمرة منشئه ، وزارعه ، إنني أستبعد هذا . وأرى أنه كان أيضاً رجلاً من محبي أهل البيت ، ولو عرف المختار زيغه ، لما ولاه شرطته . وعرض حركته لدعايات الأمويين والزبيريين ، وإن كان لم يسلم منها في نهاية الأمر .

ولكن إذا لم يكن المختار بن أبي عبيد ولا صاحب شرطته أبو عمرة هما مؤسسي هذه العقائد الغالية في بيت رسول الله بعد السبئية ، فن الثابت ، أن هذه الآراء قد وجدت في الكوفة ، ووسمت باسم المختارية أحياناً والكيسانية أحياناً أخرى . وكانت الكيسانية هي المسئولة الأولى عنها . إن في مجامع الكيسانية وبعد وفاة اخته - مائى عمرة - ورجوع الكيسانيين إلى دورهم ، بدأ الغنوص العنيف يلفت حول عنق الشيعة في الكوفة يعترضها اعتصاراً ، وينشب محالبه فيها بحيث لم تخلص الشيعة - في أقسامها المختلفة غلاة وعباسية واثني عشرية وإسماعيلية وقرامطة - من الآراء الكيسانية . ومن العجب أن هذه العقائد لم تتركز في أول الأمر حول إمام فاطمي ، بل تركزت في محمد بن الحنفية وهو إمام علوي ، ولكنه ليس من نسل فاطمة . ولعلنا من هنا نستطيع أن نصور منحى كل من المختارية والكيسانية ، كانت المخترية ، شيعة حسينية عربية في مجموع أرائها ، أعلنت انتفاءها بمحمد بن الحنفية للانتقام للحسين بن علي ، وأدت مهمتها على أحسن وجه . وكتبت ملحمتها رائعة ناضرة ، بينما نرى الكيسانية - وهي فارسية هي في عقائدها حنفية تنادي بإمامة محمد بن الحنفية المطلقة ، ثم بإمامة ابنه أبي هاشم ، وأخلافها من بعدهما ، أو ناديت بمهدية محمد بن الحنفية فقط .

ولقد كان لمحمد بن الحنفية وابنه أبي هاشم أكبر الأثر في تكوين العقائد الشيعة الحقيقية . حقاً لقد انقسمت الشيعة سواء أرادوا أم لم يردوا إلى فاطمية وحنفية . ولكن شيعة محمد بن الحنفية وشيعة ابنه أثرتا أكبر الأثر في كل فرق الشيعة بعدهما ، وهذا ما يجعلنا نفردها فصلاً خاصاً .

(١) اللببوري : الأخبار الطوال ص ٢٩٣ .

(٢) أبو خلف القمي : كتاب المقالات والفرق ص ١٦٦ تعليقات الدكتور مشكور .

الفصل السادس

الشيعة الحنفية

الإمام محمد بن الحنفية

تذكر الشيعة الحنفية أن النبي ﷺ قد بشر بميلاد محمد بن الحنفية ، فقد أخبر علياً أنه « سيولد لك من بعدى غلام وقد نحلته اسمي وكنيتي ولا نحل لأحد من أمتي بعده » وماتت فاطمة الزهراء وتزوج على عليه السلام الحنفية « خولة بنت جعفر من بني حنيفة » ، وولد له محمد ، وقد أجمع كتاب أهل السنة أن محمد بن الحنفية كان واسع العلم شديد الورع شديد القوة . وكان محمد بن الحنفية يقول « الحسن والحسين أفضل مني وأنا أعلم منهما » وقد خرج محمد مع أبيه في حربه يوم الجمل ودفع أبوه إليه رايته وقال له :

أطعنهم طعن أبيك محمد لاخير في حرب إذا لم توقد

بالمشرق والقنا المشرد^(١)

ومع أنه قد تردد في حمل هذه الولاية ، فقد عرف باسم « صاحب راية أبيه » وكان هذا سنداً فيما بعد - للكيسانية من أتباعه في القول بإمامته . وقد تردد في حمل هذه الولاية ، لأنه رأى أنه قتال المسلمين . وكان يردد « هذه والله الفتنة المظلمة العمياء » . وهنا يرد عليه أبوه قائلاً « هل عندك في جيش مقدمه أبوك شيء »^(٢) وفي رواية أخرى « أتكون فتنة أبوك قائدها » وحمل ابن الحنفية الولاية . وخاض الحرب - فيما يبدو - كارها . وحين انتهت الحرب وقتل الإمام على عاش مع أخيه الحسن حتى مات ، ثم استقر في المدينة وعاش فيها متنقلاً بينها وبين مكة ، وباع يزيد لولاية العهد في حياة معاوية . وزاره في دمشق بعد توليه الخلافة ، وقبل هداياه .

وفي المدينة بالذات أنشأ مكتباً للتعليم ، وقد كان هذا المكتب إحدى الحلقات الكبرى العلمية في تاريخ الإسلام . ولم يتنبه الباحثون إلى أهميته من قبل ، من هذا المكتب خرجت كل الآراء المتعارضة في الإسلام فالإرجاء ينسب إلى ابنه الحسن والاعتزال إلى ابنه أبي هاشم وحول شخصية

(١) الإسفراييني : التبصير في الدين ص ١٨ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٢٠ .

محمد بن الحنفية وفي هذا المكتب أيضاً ظهرت فيما أعتقد الآراء الكيسانية ومن تلامذة هذا المكتب أيضاً المختار بن أبي عبيد ، كما أن من تلامذته واصل بن عطاء شيخ المعتزلة . إنها مدرسة تشبه مدرسة الحسن البصري بل أعظم منها بكثير ، منها ظهرت الفرق المتعارضة والآراء المتناقضة والأفكار الغريبة . أما عن محمد بن الحنفية نفسه ، فقد خاض مع أبيه - كما قلنا من قبل - غمار الحرب ، وكان لها كارهاً . وذلك أنها فرقت بين المسلمين ، ثم نراه - فيما بعد يعلن فكرته في هذا « لو اجتمع الناس على كلهم إلا إنساناً واحداً لماقاتلته » وأعتقد أنه كان من المؤيدين للحسن في تنازله عن الخلافة لمعاوية . لقد رأى أن لأهل البيت مهمة أسمى ، وهي نشر العقيدة والمساهمة في تدعيمها ، وترك أمر المسلمين لمن أراد ، طالما لم يجتمع المسلمون على واحد من أهل البيت . بل رأى المسألة كلها مسألة عصبية وقوة ومنعة ، وليست أمراً من أمور الله . فقال « أهل بيتين من العرب يتخذهما الناس أنداداً من دون الله نحن وبنو عمنا هؤلاء . يعنى بنى أمية » مرة أخرى يقول « نحن أهل بيتين من قريش نتخذ من دون الله أنداداً - نحن وبنو أمية (١) » فلم يكره محمد بن الحنفية الغلو فقط ، في بنى هاشم وبنى أمية ، بل إنه عبر بقوله هذا أو بقوليه هذين أن الأمر أمر عصبية ، يأخذها من غلب .

ومات معاوية وول الأمر يزيد ، وقتل الحسين ، وبكاه محمد بن الحنفية أشد بكاء . ولكنه بايع يزيد بن معاوية ، ورفض تماماً أن يخلع بيعته . وحصر عبد الله بن الزبير بنى هاشم في شعاب مكة . كما فعل من قبل مشركو قريش مع الرسول وبنى هاشم . وأعلن ابن الحنفية « لو أن أبى على أدرك هذا الأمر لكان هذا موضع رحله ، فهو إذن يتبع سنة أبيه أو السنة التي أرادها لأبيه . ولكنه يضيق بهؤلاء العرب الذين سلبوه الحق هو وآل بيته » أما أن لكم أن تعرفوا كيف نحن ، مثلنا في هذه الأمة مثل بنى إسرائيل في آل فرعون « كان يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم » وإن هؤلاء يذبحون أبناءنا وينكحون نساءنا بغير أمرنا ، فرغمت العرب أن لهم فضلاً عن العجم (٢) وتتضح روح الإيثار عنده وحده على شيعة أهل البيت حين يقول « وددت لو فديت شيعتنا هؤلاء ولو ببعض دمي (٣) » . وهو يريد لهم الأمن والسلام فيقول لأحد أتباعه « الزم هذا المكان . وكن حامية من حامات الحرم . . حتى يأتي أمرنا . فإن أمرنا إذا جاء فليس به خفاء . كما ليس بالشمس إذا طلعت خفاء » ويزعجه حوادث ابن الزبير وطعمه فيقول « إن هذه لصاعقة لا يقوم لها شيء » .

ويأتيه أحد أتباعه من خراسان ، وطلب منه أن يكلمه سراً وقال له . . « فما زال الشين في حيكم

(١) ابن سعد : طبقات ج ٥ ص ٦٨ .

(٢) نفس المصدر السابق ج ٥ ص ٦٩ .

(٣) ابن سعد : طبقات ج ٥ ص ٧١ .

حتى ضربت علينا الأعناق وأبطلت الشهادات ، وشردنا في البلاد وأوذينا حتى لقد همت أن أذهب في الأرض قفراً ، فأعبد الله حتى ألقاه . لولا أن يخفى على أمر آل محمد « ثم يسأله هل يقاتل مع الخوارج أمراء بني أمية . وأجاب محمد بن الحنفية : أما قولك : لقد همت أن أذهب في الأرض قفراً ، فأعبد الله حتى ألقاه وأجتنب أمور الناس فإن تلك البدعة الرهبانية . ولعمري لأمر آل محمد لأين من طلوع هذه الشمس » ثم ينهه عن القتال مع الخوارج ، ويطلب منه التقية « اتق هؤلاء القوم بتقيتهم » فبدأ التقية يتقرر هنا كمبدأ شيعي على يد محمد بن الحنفية . ثم يعلن مبدأ الولاء لآل محمد فيقول « من أحبنا ، نعمة الله ، وإن كان في الديلم (١) » .

ولقد حظى محمد بن الحنفية في كتابات أهل السنة والجماعة بالمكانة السامية ، فقد آثر اعتزال كل الفتن ، وبإبع الخلفاء الغاصبين من بني أمية حقناً للدماء وحفظاً للمسلمين ، وعاش في فتنه الزبير ، وحاول تجنبها وتبرأ في رأي أهل السنة والجماعة أيضاً من الآراء الغالية التي نادى بها الكيسانية . ومن الثابت أن محمد بن الحنفية لم يكن على الإطلاق رجل فن وقلاقل ، ولكنه لم ينس واجبه ، وحق آل البيت ، ومن الواضح أيضاً أنه هو الذي استعمل المختار بن أبي عبيد على العراقيين بعد قتل الحسين ، وأمره بالطلب بدمه والثأر له وقتل قاتليه وطلبهم حيث كانوا (٢) . وقد فعل المختار هذا .

أما الآراء الشيعية التي ظهرت في عصر محمد بن الحنفية ، وبعد شهادة الحسين فهي :
 (١) المهديّة : وهنا نجد أول ظهور حقيقي لفكرة المهدي . واعتبر محمد بن الحنفية أول مهدي في الإسلام . وكان أتباع محمد بن الحنفية يسلمون عليه « سلام عليك يا مهدي » ويورد ابن سعد في طبقاته أنه رد عليهم بقوله « أجل : أنا مهدي أهدى إلى الرشد والخير ، واسمى اسم نبي الله : وكنتي كنية نبي الله ، فإذا سلم أحدكم فليقل سلام عليك يا محمد ، السلام عليك يا أبا القاسم (٣) » .
 ويذكر البغدادي أن عامر بن وائلة الكناني صاحب محمد بن الحنفية - كان يسير في مقدمته وهو في طريقه إلى عبد الملك بن مروان يقول لأتباعه :

يا إخواني : يا شيعتي لا تبعدوا وآزرروا المهدي كما تهتدوا
 محمد الخيرات يا محمد أنت الإمام الطاهر المسدد
 لا ابن الزبير السامري الملحد ولا الذي نحن إليه نقصد (٤)

وسواء أكانت هذه تقية من محمد بن الحنفية - أي سيره إلى عبد الملك بن مروان أو غير تقية - فإنه اعتبر أول مهدي في الإسلام ، وكان له ملامح المهدي تماماً ، ونحن نعلم أنه وقف على عرفات في

(٣) ابن سعد : طبقات ج ٥ ص ٦٨-٦٩ .

(١) نفس المصدر السابق ج ٥ ص ٧٠ .

(٤) البغدادي : الفرق ص ٤ .

(٢) التومنجي : فرق الشيعة ص ٢٧ .

لواء يدعونه بأمر المؤمنين . بل إن فرقة من الفرق اعتبرته الإمام المهدي الوحيد . وأنه هو وصي علي بن أبي طالب الوحيد أيضاً « وليس لأحد من أهل بيته أن يخالفه ولا أن يشهر سيفه إلا بإذنه ، وإنما خرج الحسن بن علي إلى معاوية محارياً له بإذن محمد ووادعه وصالحه بإذنه وأن الحسين خرج لقتال يزيد بإذنه ولو خرجا بغير إذنه هلكتا وصلاً وأن من خالف محمد بن الحنفية كافر مشرك (١) فهو إذن الإمام الحقيقي ، وصاحب الحق بعد الإمام علي في الخلافة عند طائفة من الكيسانية .

(ب) البداء : والبداء له معان فيما يقول الشهرستاني : البداء في العلم وهو أن يظهر الله صواب علي بخلاف ما أراد وحكم ، والبداء في الأمر وهو أن يأمر بشيء ثم يأمر بعده بخلاف ذلك ، ومن لم يجوز النسخ ظن أن الأوامر المختلفة في الأوقات المختلفة متناسخة . وقد جوزت الشيعة في عهد محمد بن الحنفية البداء على الله ، ونسبتها كتب أهل السنة للمختار بن أبي عبيد . ويرى الشهرستاني أن المختار لجأ إلى القول بالبداء ، لأنه كان يدعى علم الحوادث المستقبلية ، إما بوحى يوحى إليه ، وإما برسالة من قبل الإمام ، يغيره فيها بما سيحدث . فكان إذا وعد أصحابه بكون شيء وحدث حادثة ، فإن حدثت الحادثة كما ذكر قوله ، جعله دليلاً على صدق دعواه ، وإن لم تحدث قال : قد بدا لربكم . وكان لا يفرق بين النسخ والبداء . فقال إذا جاز النسخ في الكلام جاز البداء في الأخبار (٢) . ويبدو أن القول بالبداء يستند عند الشيعة على قوله تعالى : « يحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » . والبداء ظهور الرأي بعد أن لم يكن ، والبداية : هم الذين جوزوا البداء على الله عز وجل بأن يعتقد شيئاً ، ثم يظهر له أن الأمر بخلاف ما اعتقد ، غير أنه من الواضح أن المختار لم يلجأ إلى هذه الحيل ، وإن كانت فكرة البداء قد ظهرت فعلاً في مجتمع الكوفة في عهده ، وعلى يد أتباعه .

والمطلبي لا ينسب البداء إلى المختارية أو الكيسانية بل إلى السبائية ، ويقرر أنهم يقولون . إن الله تبدو له البدوات (٣) أما مؤرخ العقائد وشيخ السنة أبو الحسن الأشعري ، فإنه ينسب فكرة البداء إلى الرافضة ، وهو لفظ أطلق على الشيعة فيما بعد ويرى الأشعري أنها افتقرت في جواز البداء على الله ، هل يجوز أن يبدو له إذا أراد شيئاً أم لا ، إلى ثلاث فرق :

الفرقة الأولى : ترى أن الله تبدو له البدوات ، وأنه يريد أن يفعل الشيء في وقت من الأوقات ، ثم لا يحدث لما يحدث له من البداء ، وأنه إذا أمر بشريعة ثم نسخها ، فإنما ذلك لأنه بدا له فيها ، وأن ما علم أنه يكون ولم يطلع عليه أحداً من خلقه فجاؤز عليه البداء فيه . وما اطلع عليه عباده فلا يجوز عليه البداء فيه (٤) . من هذا النص ترى أن للبداء معنى آخر يتصل بقدرة الله وبعلمه ، فما يقدر

(١) الوثيقي : فرق الشيعة ص ٢٠٦ . (٢) المطلبي : التنبيه ص ٢٦ .

(٣) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٣٧ - ٢٣٨ . (٤) الأشعري : مقالات الإسلاميين ج ١ ص ٣٩ .

عليه الله ولم يطلع أحداً عليه ، فله أن يفعله أولاً يفعله ، وأما ما علم الناس أنه كائن ، فلا بداء فيه .
والفرقة الثانية : وهي تقرر البداء لله إطلاقاتاً ، فهو جائز على الله فيما علم أنه يكون حتى لا يكون ،
وجوزت ذلك فيما أطلع عليه عباده وأنه لا يكون كما جوزوه فيما لم يطلع عليه عباده .

والفرقة الثالثة : وهي تقرر أنه لا يجوز على الله البداء (١) . فالبداء إذن فكرة نشأت ساذجة في
عهد المختار ، وفي أوساط الغلاة ، ثم انقلبت إلى فكرة من « جليل الكلام » فيما يرى الأشعري .
(ج) العلم السرى : وبدأت في عهد محمد بن الحنفية فكرة العلم السرى منسوبة إلى الأئمة . وقد
ذكر الشهرستاني : « والسيد كان كثير العلم غزير المعرفة وقاد الفكر ، مصيب الخاطر في العواقب ، قد
أخبره أمير المؤمنين عن أخبار الملاحم ، وأطلعته على مدارج المعالم . وهذا ما يؤمن به أهل السنة
ولكن الشيعة في عصره أضافوا . « أنه كان مستودعاً علم الإمامة حتى سلم الأمانة إلى أهلها ، وما فارق
الدنيا حتى أقرها في مستقرها ، فإنه يعرف الأسرار يحملها من علم التأويل والباطن وعلم الآفاق
والأنفس (٢) . وهذا تصوير « متأخر » . ظهر من الإمامية حين بدأت نظريات الإمام المستقر
والمستودع ، وتظهر في محيط الشيعة الغلاة المتأخرين ثم الإسماعيلية فيميزون بين إمام مستقر وإمام
مستودع . فالإمام المستودع من تنتقل إليه الإمامة - وديعة لكي ينقلها إلى إمام مستقر أو تكون الإمامة
في عقب المستقر ، ولا تكون في عقب المستودع . فالحسن كان إماماً مستودعاً والحسين هو الإمام
المستقر . وتستخدم الشيعة الغلاة ، ثم الإسماعيلية هذه المصطلحات أسوأ استخدام .

ويبدو أن محمد بن الحنفية لم يشغل بمسألة الإمام المستودع والإمام المستقر . لأنه لم يعرفها ولم تظهر
في عهده . ولكن ما شغله هو نسبة العلوم السرية إليه . وقد كره أن يعلم عنه أنه يحوى هذه العلوم
يفتتن الناس فيعلن « إنا والله ما ورثنا من رسول الله إلا ما بين هذين اللوحين (٣) » ويقصد بهذا القرآن
الكريم .

هذه الأفكار الفلسفية الثلاث التي ظهرت في عهد محمد بن الحنفية . منسوبة إلى المختارية أحياناً
وإلى الكيسانية أحياناً . وقد ظهرت في الكوفة بالذات ، وعاون عليها بلا شك الشيعة التي انتشرت
لدى بعض القبائل التي اتخذت التشيع عقيدة لها ومبدأ - كقبيلة عجلة وقبيلة بجيلة وقبيلة كندة .
وغلت في التشيع أشد غلواً ، وقد دخلت هذه العقائد في صورة مخففة في عقائد الإمامية الاثني
عشرية .

(١) الأشعري : مقالات الإسلاميين ج ١ ص ٣٩ .

(٢) الشهرستاني : الملل ج ١ ص ١٤١ .

(٣) ابن سعد : طبقات ج ٥ ص ٣٢ .

وقد ساد الكوفة - إبان ذلك الوقت - الأساطير الكبرى عن ملحمة قتل الحسين عليه السلام ، ثم عن قتل قتلته ، فالملائكة على الخيل البلق تحارب معهم والحمامات البيض التي تظهر في الهواء والملائكة تنزل على صورة الحمامات (١) . أساطير ظهرت في هذا المجتمع الغريب . وكان مع المختار السبئية أى محبوب على بن أبى طالب . وهم عرب أقحاح ، والكيانية . وهم عبيد أهل الكوفة أى الموالي من الفرس «لأنه وعدهم أن يعطيهم أموال سادتهم» (٢) ، ولا بد أن تظهر كل تلك الأساطير في هذا الجيش الثائر ، وأن يعاون عليه ثقافات عدة وأفكار متباينة . ولكن لم يكن المختار بن أبى عبيد صاحب هذه الأساطير أو منشئها .

أما تطور العقائد الكيانية بعد ذلك - إلى أن الدين طاعة رجل ، وتأويل الأركان الشرعية من الصلاة والصوم والزكاة والحج وغيرها على رجال . . . والتناسخ والحلول والرجعة بعد الموت . . . فلم تظهر في عهد محمد بن الحنفية . ولم يعرفها المختار .

أما مصادر الأفكار الشيعية الثلاث في هذا الوقت فهي : المهدي . ويستند الشيعة على الحديث «لا تنقضى الدنيا حتى يخرج رجل من أمتي يواطئ اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي فيملا الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً» . ولكن من الثابت أن المهدي فكرة تنازعها الأديان الثلاثة وأتت بها اليهودية والمسيحية والإسلام فهي حظ مشترك بينهم جميعاً . ومن المحتمل أن يكون كعب الأحمار ، كما سترى بعد . هو الذى أدخلها في التراث الإسلامى . أما البداء ففكرة يهودية . والعلم السرى فهو فكرة غنوصية .

وأخيراً مات محمد بن الحنفية بشعب رضى عام ٨١ هـ .

(١) الشهرستاني : الملل . . ج ١ ص ٢٤ .

(٢) البغدادي : الفرق . . ص ٢٢ .

الفضل السابع

الشيعة الأبوهاشمية

الإمام أبو هاشم بن محمد بن الحنفية

انتقلت الإمامة بعد وفاة محمد بن الحنفية إلى ابنه أبي هاشم ولالإمام أبي هاشم من المكانة العظمى في تاريخ الفكر الإسلامي ، ما لا يدانيه أحد من رجالات أهل البيت في عصره أوحق من التابعين ، والكشف عن شخصيته من أعقد الأمور وأكثرها إشكالاً : هل كان أبو هاشم رجلاً ذكياً من رجال البيت العلوي ، أم كان غنوصياً قائماً .

أما أهل السنة والجماعة فقد اعتبروه إماماً من أئمة المسلمين ، سار على هدى أبيه ، وأخذ يعمل معه في نشر العقيدة ، وكان له دور فعال - فيما يبدو - في المكتب الذي أنشأه أبوه لنشر العلم . ثم كان محدثاً كبيراً . أخرج له أصحاب الصحاح الستة ووثقه ابن سعد والنسائي وغيرهما (١) . وفي الوقت نفسه يعتبره طاش كبرى زاده - كما قلنا من قبل - شيخاً من شيوخ واصل بن عطاء ، أي يعتبره أول من نادى بالاعتزال . يقول طاش كبرى زاده « أول ما ظهر مذهب الاعتزال وشاع ، إنما ظهر من واصل بن عطاء . أخذ الاعتزال عن الإمام أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب . قيل كان أول من أحدث مذهب الاعتزال واخترعه . كان الإمام أبو هاشم المذكور (٢) » بينما كان أخوه الحسن بن محمد بن الحنفية أول المرجئة وله تصنيف فيه . فنحن إذن أمام محدث ثقة في رأي المحدثين ومنشئ الاعتزال في رأي مؤرخي علم الكلام ، وأخوه الحسن منشئ الإرجاء .

أما الشيعة الحنفية فقد رأت طائفة منها أن الإمامة الروحية قد انتقلت من محمد بن الحنفية إلى ابنه أبي هاشم معلنين أن محمد بن الحنفية « أفضى إلى أبي هاشم بأسرار الكلام ، وأطلعه على مناهج تطبيق الآفاق على الأنفس ، وتقدير التنزيل على التأويل وتصوير الظاهر على الباطن ، قالوا إن لكل ظاهر باطنا ولكل شخص مروحاً ، ولكل تنزيل تأويلاً ، ولكل مثال في هذا العلم حقيقة في ذلك العالم ، والمنتشر في الآفاق من الحكم والأسرار مجتمع في الشخص الإنساني ، وهو العلم الذي استأثر به على

(١) تعليقه (٣) لمحمد بن زاهد الكوثري على التصريح في الدين ص ٢٧ .

(٢) طاش كبرى زاده : مفتاح السعادة ج ١ ص ٢٤٣ .

عليه السلام ابنه محمد بن الحنفية ، وهو أفضى بذلك السري إلى ابنه هاشم ، وكل من اجتمع فيه هذا العلم ، فهو الإمام حقاً» (١) ، نص من أخطر النصوص إن صح فعلاً أنه ظهر في عهد أبي هاشم ، ويبدو منه أن المجامع الغنوصية - في نواحي الكوفة بدأت تعمل عملها الكبير الذي سيؤدى في تاريخ الإسلام العقائدى إلى أخطر النتائج ، ولا شك أنه كان هناك فرس كثيرون في جيش المختار بن أبى عبيد ، بل إن المحمرة كانوا سواد جيش إبراهيم بن الأشتر في حربه مع عبيد الله بن زياد ، ولا شك أن العقائد الثنوية بدأت تستشرى في هذا الوسط الغريب . إن انتقال العلم السرى من على إلى محمد بن الحنفية إلى أبى هاشم ، ثم إلى كل من اجتمع فيه هذا العلم سيؤدى إلى نتائج خطيرة في تاريخ الشيعة ، وسرى بعد قليل أن هذا العلم - سيخرج من دائرة العلويين إلى دائرة أناس آخرين وبخاصة في قبيلة عجلة أو قبيلة بجيلة ، يدعم الفكرة بعض الموالى ، وهم يحملون عقائد قديمة كامنة في نفوسهم . وأخيراً نرى فكرة تطبيق الآفاق على الأنفس . وظهر مصطلحى الظاهر والباطن ، وأن الظاهر لا يفسر ولا يؤول إلا باطناً ، وأيضاً نلمح لأول مرة فكرة الشخص الروحانى ، وأن إليه جاع الدنيا . وستخرج من هنا فكرة أن الدين طاعة رجل ، طالما اجتمعت الآفاق في نفس رجل ، ثم نرى الفكرة الأفلاطونية التي تقرر أن لكل شيء مثالا ، والتي دخلت ببراعة نادرة في العقائد الغنوصية ، تدخل أيضاً في قلب المذهب الشيعى . وكما أخذت الشيعة المعتدلة فيما بعد بكل العقائد التي أعلنها الشيعة في محمد بن الحنفية ونسبوا إلى الأئمة الاثنى عشر ، دخلت أيضاً العقائد الغنوصية بعد عهد أبى هاشم في عقائد الشيعة الإمامية الاثنى عشرية في صورة معتدلة وفي عقائد الشيعة الإسماعيلية في صورة مغالية . بل إن منهج تطبيق الآفاق على الأنفس ، وأن لكل مثال في العالم الآخر مثلاً في هذا العالم . سيصبح نظرة ميتافيزيقية تكون أساس المذهب الإسماعيلى الميتافيزيقى في نظرية المثال والمثول ، كما أن فكرة الظاهر والباطن والتأويل والتريل ستصبح كلها دعائم للمذهب الإسماعيلى ، بل ومن العجب أن نرى «العدل والتوحيد» وهما أهم عقائد المعتزلة ، وهى التي تنسب أيضاً إلى أبى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية تدخل وتسيطر على عقائد الاثنى عشرية . كما تسيطر على عقائد الزيدية ، وتسيطر على عقائد الإسماعيلية وينتمى الغلاة جميعاً في آرائهم إلى تلك الآراء الشيعة التي ظهرت في عهد إمامة أبى هاشم . وكان القرامطة أيضاً تلاميذ أمناء للابن هاشمية .

لم تكن تلك الأفكار الغنوصية هي كل ما ظهر في عهد إمامة أبى هاشم الروحية وإنما ظهرت فكرة خلود الإمام ورجعته ، وهى متصلة بالغلاة وسببها في موضعها .

وأخيراً نرى أبى هاشم يقدم على سليمان بن عبد الملك ، الخليفة الأموى ، فيقول سليمان لخاصته :

« ما كملت قرشياً قط يشبه هذا . وما أظنه إلا الذي كنا نحدث عنه (١) » ويبدو أن الأخبار تواترت بأن هناك من سيظهر ويعلم الثورة من آل البيت ، وكان أبو هاشم ذا نشاط جم لسناً عالماً ، وكان على صلة بأهل خراسان . بل إن أهل خراسان كانوا يعتبرونه « الإمام » وأنه ورث الوصية عن أبيه (٢) وهذا هو سبب تخوف سليمان بن عبد الملك منه . وفي خلال عودته من دمشق إلى المدينة ، وبعد محادثة سليمان له وتبينه خطورة الرجل . أرسل سليمان من أتباعه من ضربوا له أخبية في الطريق . وحين استقاهم أبو هاشم . حين مر بهم . قدموا له اللبن المسموم . فلما استقر اللبن في جوفه ، وأحس أنه سم قال لمن معه من أصحابه « أنا والله ميت ، فانظر من هؤلاء » أي هؤلاء الذين قدموا له السم . فنظروا فإذا القوم قد قوضوا أخبيتهم ورحلوا فارين ، فطلب أبو هاشم من أتباعه أن يحملوه إلى ابن عمه محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بأرض الشراة ، فأسرعوا به إليه .

ويعلم العباسيون فيما بعد : أن أبا هاشم أوصى إليهم « ويوردون القصة الآتية : « أنه لما قدم - وهو في نزع الأجير على محمد بن علي بن عبد الله بن عباس . وقال له : يا ابن عم أنا ميت ، وقد صرت إليك ، وهذه وصية أبي إلى وفيها أن الأمر صائر إليك وإلى ولدك ، والوقت الذي يكون ذلك والعلامة ، وما ينبغي لكم العمل به ، على ما سمع وروى عن أبيه على بن أبي طالب عليه السلام ، فاقبضها إليك . وهؤلاء الشيعة استوص بهم خيراً . وهؤلاء دعائك وأنصارك فاستبطنهم ، فإني قد بلوتهم بحجة ومودة لأهل بيتك » (٣) ثم طلب منه أن يرسل رسله إلى خراسان ، ثم أبان له عن مراكز الشيعة في رقعة العالم الإسلامي ، وطلب منه آخر الأمر اختيار الدعاة ، وأن يكونوا اثني عشر نقيباً ، فإن الله عز وجل لم يصلح أمر بني إسرائيل إلا بهم وسبعين نفساً بعدهم يتلونهم . فإن النبي ﷺ إنما اتخذ اثني عشر نقيباً من الأنصار اتباعاً لذلك .

ومات أبو هاشم بعد أن دفع الوصية وأسرار الدعوة إلى محمد بن علي . وذلك عام « ٩٧ » وسأعود إلى مناقشة هذه الوصية حين أعرض لنشأة الدعوة العباسية والغلو العباسي . ومع أن هذه الوصية لم تكن الوحيدة التي تركها أبو هاشم . ولكننا نستطيع أن نستخلص منها الآراء العامة الشيعة التي ظهرت عنها .

يبدو تماماً منها أن أبا هاشم كان منظم الدعوة الشيعية في العراق وخراسان ، حيث اعتبر في

(١) البقرى : تاريخ ج ٣ ص ٤٠ .

(٢) الأصفهاني : مقاتل الطالبين ص ٩١ .

(٣) البقرى : تاريخ ص ٤١ .

خراسان - وستكون هي موطن الحركة العباسية - الوصي والإمام ، ثم استخدم الدعاة والحجج . وأصبح مصطلح الداعي والحجة من أهم مصطلحات الشيعة . وأصبح الدعاة والحجج أعمدة هذه العقيدة سواء لدى العباسيين ثم الاثنى عشرية . ثم الإسماعيلية .

وهو أيضاً الذى استخدم « النقباء » أو من أشار باستخدامهم . وطلب من محمد بن على أن يكون دعامة دعوته اثني عشر نقيباً . وهو أيضاً الذى نادى بفكرة « العلم السرى » الغنوصى المتوارث عن أبيه عن الإمام على . وأخيراً كان أبو هاشم أول من أخرج الوصية فعلاً من البيت الفاطمى ، ولم يكن هو نفسه فاطمياً . وأخرجها أيضاً من البيت العلوى إلى بنى عبد المطلب عامة . وسرى بعد من الشيعة الغلاة ، من يخرجها كلية من آل البيت إلى أناس وأشخاص ليسوا من الفاطميين ولا من العلويين ولا حتى من الطالبين . وسيؤدى كل هذا إلى نفوذ الغنوص . وبخاصة في تلك القبيلة الغالية - بنى عجل - أو بنى بجيلة . وسيؤدى أيضاً إلى فكرة التبنى الروحى عند الإسماعيلية وستعمل الدوائر الغنوصية من مانداية ومزدكية ومانوية ، وديسانية . عملها الكبير في تاريخ العقيدة الشيعية . وعلى أية حال كانت وصية أبى هاشم للعباسيين تكأة لهم في نشر دعوتهم بخراسان وهي التي قام فيها أبو هاشم بنشاطه السياسى الخطير . أو بمعنى أدق أخذت الراوندية العباسية أعمدتها وأساسها من كيسانية أبى هاشم . ولكن لم تكن هذه الوصية الوحيدة التي تركها أبو هاشم بل كانت هناك وصية أخطر ، وأدق ، وأستر . فقد ذهبت الكيسانية الخالص إلى أن أبى هاشم عبد الله بن محمد مات وأوصى إلى أخيه على بن محمد بن الحنفية . ويذهب هؤلاء إلى أن أبى هاشم ذهب إلى أرض الشراة ليرك الوصية لأخيه على بن محمد بن الحنفية ولكن العباسيين غيروا الاسم إلى على بن محمد العباسى ، وأن أتباع أبى هاشم الذين كانوا معه لم يتبينوا هذا الخطأ . ثم أوصى على بن محمد بن الحنفية إلى ابنه الحسن بن محمد ، وأوصى الحسن إلى ابنه على بن الحسن ، وأوصى على بن الحسين إلى ابنه الحسن بن على . ويقول أبو خلف القمى : « والوصية والإمامة عندهم في ولد محمد بن الحنفية لا تخرج إلى غيرهم . ومنهم زعموا يكون القائم المهدي ، وهم الكيسانية الخالص الذين غلبوا على هذا الاسم ، وهذه الفرقة خاصة تسمى المختارية^(١) هذه الفرقة - الكيسانية الخالص - هي أهم الفرق الشيعية فعلاً ، فيها بقيت الكيسانية الخالصة ، وقد تابعت نظام المختار الاقتصادى ، فأنشأت المجتمع المعروف باسم المجتمع القرمطى ، وهو مجتمع اقتصادى ذو نزعات اشتراكية أو شيوعية ، وإلى هذه الفرقة تنسب النقابات المشهورة في الحركة القرمطية . كما أن هذه الفرقة التي بقيت في الكوفة وفي واسط ، ستطور العقائد المختارية والعقائد الكيسانية ، فتختلط أشد الاختلاط بالغنوصية ، وسيستج عنها كتاب بل كتب دينية منسوبة لأحد

(١) أبو خلف القمى : المقالات ص ٣٩ والنوحي ، فرق الشيعة ص ٣١ .

أولاد ابن الحنفية ، وسيكون « القائم المهدي » هو محمد بن الحنفية أو أحد أولاده وهو المنتظر عند القرامطة جميعاً . وسأثبت إثباتاً قاطعاً أن القرامطة لم يكونوا إسماعيلية ، بل هم الكيسانية الخلف . أما الوصية الثالثة - فكانت لعلى بن الحسين زين العابدين فقد أعلنت طائفة من الأبي هاشمية أن أبا هاشم قال « إن الوصية له مادام حياً ، فإذا مات رجعت إلى أصلها - يعنى إلى أبيه » ولكن البعض قال بأنه جعل الوصية عند موته - أى محمد بن الحنفية إلى أبي هاشم ، فإذا مات ، أن ترد إلى على بن الحسين بن على وهذه الفرقة انصهرت بلا شك في الإمامية . ولكن على أساس أن الوصية انتقلت من أبي هاشم إلى زين العابدين (١)!

ولكن ما لبث أن فاض الأمر وضخم . قام عبد الله بن عمر بن حرب الكندى - وهو من السبئية يدعى الوصية من أبي هاشم ، كما قام عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب يدعيها أيضاً ، ثم ادعى بيان بن سميان وصية أبي هاشم ، وكلهم أدخل في باب الغلو ، ومن العجب أن الغلاة جميعاً يظهرون في إثر أبي هاشم ، وباسمه ، ومن العجب ! أن يظهر المعتزلة أعداء الغلاة وأعداء الغنوصية الشداد في إثر أبي هاشم وباسمه .

(١) أبو خلف القسى : كتاب المقالات ص ٣٥ .